من تأليف:
ناعسة الطرف
altrfnast259@gmail.com

- ليلة قبل الاحتفال.

انطفأت آخر شمعة في الغرفة، تاركةً الأميرة إليسيا في ظلامٍ يُخيم كغطاء ثقيل. كانت خريطة وادي الشتاء الممزقة أمامها تتلوى كأنها جُرح نازف، وحبر الخطوط العسكرية يذوب تحت دموع المطر التي تسللت من نافذة الغرفة .

" جدي فلادور.." همست باسم جدها، بينما تلألآت في الظل عيناها الزرقاوان كجمرتين في رماد بارد. على الجدار، قناع الذئب الفضي الذي خلعه قبل اختفائه – صارخًا بصمته بأنه لن يعود .

شعرت إليسيا أن جسدها ينزلق دون إرادة، كأن أحدًا دفعها من ظهرها إلى قاعٍ لا قرار له. لم تكن نائمة... كانت عالقة بين يقظة خانقة ونومٍ يزأر. فتحت عينيها، فإذا بها تقف وسط وادٍ جليدي، تحت سماء خرساء لا قمر فيها. الصمت... صمتٌ ثقيل، يضغط على الأضلاع كما يضغط الجليد على العظام. كانت ترتدي فستانًا ملكيًا، لكنّه ملطخ بالطين، وعيناها تنعكسان في بركة من دمٍ ساكن، حولها رفات فرسان يرتدون شعارات العرش القديم.

ثم دوّى الصوت.. صوت ضحكة!

ضحكة ألدريك... لكنها لم تأتِ من فمه، بل من التاج ذاته الموضوع على جماجم الأطفال.

وفجأة، من بين الشقوق في الأرض، ارتفع **تنين ذهبي** .فخم، مجنّح، وعيناه تتلألآن. اقترب منها، بخطوات ثقيلة على العظام أذى الى تفتتها وطحنها تحت أقدامه، وهمس بصوت يشبه هدير آلاف الملوك:

"أنتِ... آخر من يرى النور من هذه السلالة".

ثم انشقّت الأرض تحت قدميها، وانبثقت منها **أفعى سوداء** – ليست من لحم، بل من ظلال ودخان. لفّت عنق التنين، لكنها لم تقتله فورًا. غرزت أنيابها في عينيه.. وانتظرت أن يسيل الدم. وما إن سقطت أولى القطرات... حتى تحولت الأرض إلى **مرآة سوداء**، وعليها كُتبت الكلمات بدم متوهج:

"الموتى لا يموتون... إنهم ينظرون إليكِ".

فتحت إليسيا عينيها بحدة.. كانت تضغط بقوى على يدها اليسرى. أرختها حتى لاحظت ظهور ندبة، وبأنفاسها التي تتكاثف على زجاج النافذة الباردة.

لم تكن في الوادي. لم تكن في غرفتها أيضًا. كانت في **نسخة غريبة من قصرها** — كل شيء حولها ساكن، بلا ألوان، كأن المكان مطليّ بالرماد. الجدران مكسو بلوحات متآكلة، والعروش.. مقلوبة. ركضت نحو الممر، لكن الأرض تحت قدميها بدت رخوة كوحل الذاكرة.

وفجأة، توقف كل شيء. صوت خطوات ثقيلة... وباب ثقيل يُفتح. دخل رجل طويل، معطفه الأسود يلامس الأرض، وعيناه تلمعان بلون العسل المتخثّر.

ابتسم كمن عاد من قبر يعرفه جيدًا.

"كبرتِ يا إليسيا... صرتِ تشبهينها".

عرفته فورًا" **ألدريك** ".همست بالاسم، لكنه ارتدّ في الجدران كصرخة مدفونة. اقترب، دون خوف، وكأن هذا المكان له. جلس على عرش مكسور، وثبّت نظره عليها.

"تعرفين ما المضحك؟ حين عرفتُ أنني سأُعدم، ضحكت. ليس لأنهم خانوني، بل لأنني كنتُ أعرف أنهم سيفعلون".

قالت بجمود : **" أنت خنت الإمبراطور. دم الأبناء سال بسببك".**

ابتسم : **" وهل بقي من الأبناء أحد؟ جدك الآن يمشي إلى فخ بقدميه. وأنتِ.. تشاهدين".**

تقدّمت نحوه. أرادت أن تصرخ، أن تضربه، لكنها لم تكن تملك الجسد هنا.. كانت ظلًا.

"لماذا أظهرتَ الندبة؟ لماذا تعذبني حتى في نومي؟"

ضحك ببطء، كأنها سألته عن سر الحياة.

"يا إليسيا.. لا تفزعي من الكوابيس، بل من الحقائق التي تُخفيها. أنا ميت في عينيك.. لكن هناك من هو ميتٌ حقًا.. ويُفكر بالاستيقاظ".

ثم نهض من العرش، واقترب منها، همس قرب أذنها : **" أدريان.. تظنينه أخاكِ؟ ربما.. أو ربما كان مرآتي".**

وفجأة، انطفأت أنوار القاعة، وبدأ السقف ينهار، وأصوات ذئاب تُعوي.. لكن إليسيا لم تصرخ.

بل همست : **" أنا لست أمي .. ولن أكون أنت ".**

وقبل أن يغمرها الظلام، مدّ ألدريك يده إليها. لكنها لم تمسك بها. نظرت إلى كفّه... فلمحت وشماً يحمل الجملة : **نتزف رماداً لا دماً.**

همس:

"حين تستيقظين... لن تكوني كما كنتِ. ما دخل فيكِ الليلة... لن يخرج بسهولة".

ثم اختفى.

فتحت إليسيا عينيها دفعة واحدة. هذه المرة، كانت في غرفتها فعلًا. صوت المطر بالخارج، ملمس الوسادة تحت خدها، والرطوبة في الهواء... كل شيء حقيقي. لكنها شعرت بشيء غريب. نظرت إلى كتابٍ قديم كان موضوعًا على مكتبها — **كتاب عن أساطير العرش الأولى** كانت تقرؤه بالأمس...

غلافه صار محترقًا من الزاوية اليمنى، وكأن نارًا صغيرة لحست الورق.

اقتربت.

تحت الرماد الخفيف، ظهر رمز... ليست يدًا، ولا خنجرًا. بل **نقشٌ باهت لأفعى تبتلع ذيلها** .أصابعها ارتجفت، لكنها لم تلمسه.

لم يكن هناك أحد في الغرفة... ولكن الرماد كان دافئًا.

الفجر – غرفة إليسيا – بعد الحلم والرسالة.

بينما كانت تحاول تفسير الحلم، دخل كايلان – حارسها الذي تحوّل صمته إلى جدارٍ تحتمي خلفه – حاملًا مخطوطة سوداء تنبعث منها رائحة الملح والدم المتعفن .

" ليانا تسلّمت هذا من غريبٍ عند البوابة الجنوبية.. قال إنه هدية من **الذي يعرف أحلامك**".

فتحتها إليسيا بيد مرتعشة. لم تكن سوى كلمة واحدة مكتوبة بـ خطّ أشبه بخدوش حيوان : **"الغد... سيعود الموتى".**

لكن ما جمد الدم في عروقها لم يكن النص، بل الكتابة أسفل الرسالة **: نتزف رماداً لا دماً ;** كالتي كان يحملها عمها ألدريك على معصمه – الوشم نفسها التي ظهرت في حلمها !

همس كايلان: "دراكاريون.. يعرفون أن الإمبراطور يزور الوادي غدًا".

لكن إليسيا كانت تنظر إلى ظلٍّ متحرك خارج النافذة – ظلٌّ له ذيل أفعى يذوب في الظلام, بدى لها أنه من نسج خيالها .

لم تَنَم تلك الليلة.

بقيت تحدق في الحروف التي لا تليق بالورق، ولا بالزمن.

"الغد.. سيعود الموتى".

كانت الكلمة ترتجف تحت ضوء الشمعة، وكأنها لا تريد أن تُقرأ مرتين. أرادت أن تحرق الرسالة. مدت يدها نحو اللهب، لكنها ترددت .**كايلان** كان يقف قرب الباب، ساكنًا كما اعتاد، لكن عيناه لم تكونا مرتاحتين. كان يُراقبها... أو يراقب الخوف فيها.

"هل قلت إن ليانا تسلّمتها من غريب؟"

أومأت، ولم تُبعد نظرها عن الورقة.

"قال إنه يعرف أحلامي.. كيف؟"

"إنهم لا يقرؤون الحُلم، بل يصنعونه ."ردّ كايلان بتلك العبارة، بصوت لم يعُد ملكه تمامًا. ثم أضاف، كمن يعترف بشيء أخطر من الخيانة:

"عشتُ خمس سنوات في الشمال.. هناك طائفة تُدعى **عظام الفجر** .

يقولون إن الحلم باب. إن عرفت كيف تدخله، فلن تحتاج لقتل أحد وأنت مستيقظ".

نظرت إليه. لأول مرة شعرت أن كايلان ...**يخاف**.

"والندبة؟ " همست بالكلمة وكأنها خائفة من معناها أكثر من شكلها.

اقترب بخطوة. نظر إلى الرسالة، ثم إلى معصمها.

"إنها ليست علامة.

إنها ختم.

حين تظهر.. يعني أن أحدهم فتح الباب من الداخل".

ارتجفت.

نظرت إلى يدها — إلى الندبة الخفيفة التي بدت بالأمس كحلم.. واليوم تُشبه **بذرة شيء لا يُشبهها.**

في لحظة تمرد على الخوف، أمسكت الرسالة، ورمتها في الموقد. انتظرت أن تحترق. لكن اللهب **تجنّبها** ...كما يتجنب الموت دموع طفل. تحولت الورقة إلى فحم دون لهب، لكن الحروف **لم تختفِ** .بل ظهرت كلمة جديدة، لم تكن هناك من قبل.

"استعدّي".

صرخت إليسيا، وتراجعت.

كايلان أخرج سيفه دون تردد، اقترب من الرماد، ثم توقّف.

"هذا سحر قديم.. اسمه الكتابة الثانية. لا تُكتب بالحبر.. بل بالخوف".
"ومن يكتب بالخوف؟"
"من يعرف من تكونين، قبل أن تعرفي أنتِ نفسك".

سحبت إليسيا عباءتها، ودخلت غرفة جدها التي لم تدخُلها منذ غيابه. على الحائط، خريطة الإمبراطورية القديمة... عليها علامات ودوائر حمراء. لكن عيناها توقفتا على شيء آخر:

لوحة زيتية قديمة.. تجمع الإمبراطور وأبنائه.

وفي الخلف، يقف شابٌّ بملامح غير مكتملة ...**شخصٌ نُسيت ملامحه عمدًا.**

اقتربت، لمسته بإصبع مرتجف.

"أنت... لست حلمًا".

"أنت عدت".

"أدريان". ..

استفاقت العاصمة الإمبراطورية على وقع الطبول لا الحرب، بل الاحتفال. تسابقت الخادمات في تلميع الأرضيات الرخامية كأنها مرايا لعرشٍ فقد انعكاسه. تماثيل الأباطرة القدامى نُظّفت، والرايات الحمراء والخضراء رُفعت فوق أبراج القصر، كأنها تخفي تحتها خناجر غير مرئية.

في المطبخ السفلي، كان الطهاة يهمسون عن اللحوم القادمة من وادي البجع، وعن النبيذ المخمّر في قبائل الجبال الشرقية.
أما في الممرات، فقد استُبدل الحُراس بأخرين جدد "مؤقتًا"... لكن لا أحد في القصر يثق بالتغييرات المفاجئة.

في غرفة إليسيا، اصطفت وصيفتان بثياب مطرزة ينتظران أن تخرج إليهن. لكن الأميرة لم تكن هناك, لم تكن إليسيا في جناحها. بل في سرداب حجري ضيق خلف مكتبة قديمة لا يدخلها أحد منذ وفاة جدّتها.

هناك، خلف جدار متهالك، فتحت بابًا مخفيًا يؤدي إلى غرفة صغيرة بلا نوافذ، لا يضيئها سوى شمعة يتيمة، ولا يسمع أنينها سوى الحجارة.

على أحد الجدران، نُقشت كلمات بخطّ مرتعش. لم يكن بالحبر، بل بالفحم ..

أحلامٌ، كوابيس، تواريخ، أسماء...

.

.

.

.

27 آذارُ / ما بعد منتصف الليل

"كنت أمشي في ممرات القصر، لكنها بلا نهاية. كل باب يفتح على باب آخر. كنت أبحث عن شيء لا أتذكره... حتى فتحت بابًا فيه مرآة، لكن لم أرى انعكاسي عليها""كل الوجوه التي ظهرت في المرآة كانت ميتة.. وكان أحدها يبتسم لي".

29 نَيْسانُ / الفجر

"رأيت التنين الذهبي يطير فوق العاصمة، لكنه كان أعمى. حلق فوق النيران دون أن يراها، ثم سقط. لكن الأرض لم تفتح له ذراعيها، بل بلعته الأفعى""كل من صفق لسقوطه.. كان يرتدي القناع نفسه".

1 حَزِيرانُ / الليل

"أدريان كان يقف في الثلج، لكن لم يكن صغيرًا كما أذكره. كان ينظر نحوي، لا يتكلم. حاولت أن أناديه.. لكنه أشار إلى قلبه، وهناك لمحت فتاة تشبهني أظنها كانت انا".

3 تَموزُ / الليل

"كانت القاعة مليئة بالكراسي الفارغة، كل كرسي تحته جمجمة، فوقها تاج صغير من الزجاج.ثم جاء صوت يقول: 'اختاري واحدًا، أو ستُجلَسين حيث لا ترغبين'.حين مددت يدي.. تجمد كل شيء".

4 أَيْلُولُ / الفجر

"الثلج تساقط داخل غرفتي. على سريري كان قناع الذئب، لكنه ينزف من عينيه.
عندما حاولت أن ألبسه، صرخت الجدران: 'الخيانة لا تُخفى بالقصدير'.
واستيقظت... ويدي كانت باردة كالثلج".

8 أَيْلُولُ / الفجر

"كنت في القاعة الكبرى، لكن دون سقف. فوقنا سماء من نار، وتحته أقنعة ترقص وحدها... بلا وجوه، بلا أجساد".
"كنت أبحث عن جدّي، لكن كايلان أمسك بيدي وقال: 'لن تجدي سوى مرآتك'".
"التاج سقط من السماء، واخترق الأرض أمام قدمي... وعندما نظرت إليه، رأيت فيه صورتي... مكسورة"

كانت إليسيا تكتب أحلامها هنا.

ولم تكن وحدها.

في صندوق خشبي تحت الأرض، أخفت رسائل جدّها القديمة، ومخطوطات ناقصة لأوامر ملكية لا تحمل ختمًا، وشيئًا لا تجرؤ حتى على لمسه : **صفحة من مذكّرات ألدريك،** اليوم السابق لمحاولة انقلابه.

نظرت إلى الجدار، ومدّت يدها تضيف حلماً جديدًا:

"الغد.. سيعود الموتى".

ثم أضافت التاريخ مع تفاصيل خفيفة للحلم. بعدها كتبت تحتها بخط مرتجف:

"هل أنا الحلم؟ أم أهلوس بين رفات الأكاذيب؟"

أنهت إليسيا آخر كلمة على الجدار، ونفخت على الفحم ببطء كمن يدفن سرًّا. أعادت القلم إلى مخبئه الصغير بين الحجارة، ولم تنظر خلفها، كأنها تخشى أن ترى الكوابيس وقد تجسدت على الحائط.

دفعت باب السرداب الحجري، فصرّ ببطء كما لو أنه يئن على فراقها. ارتفعت على السلالم المعتمة، خطوة تلو الأخرى، وكل درجة كانت تُبعدها عن الظلام.. ولكن لا تُنقص من ثقله في صدرها.

ما إن خرجت إلى الممر العلوي حتى لفحها دفء المصابيح، وعطر الزهور الملكية، وصوت الموسيقى البعيد.

وصيفتان كانتا تنتظرانها عند باب جناحها الملكي، فزعتا قليلاً لرؤيتها قادمة من الممر الخلفي.

إحداهما قالت بارتباك : **" أميرتي... الحفلة بدأت، والكل يسأل عنك".**

اكتفت إليسيا بإيماءة صغيرة، ثم دخلت الغرفة.

الضوء في الداخل مختلف. المرايا تلمع، الأقمشة مزخرفة بالفضة، وثوب الاحتفال الأبيض مُعلّق كأنه شبح ناصع ينتظر جسدًا يلبسه.

جلست على المقعد أمام المرآة، صامتة، بينما بدأت الوصيفتان تسرّحان شعرها وتعدّلان ثوبها.

في المرآة، رأت نفسها. لكن في عينيها.. كانت لا تزال ترى التنين، والأفعى، والتاج الذي بكى دمًا.

وبعد لحظات، خرجت من جناحها. بخطوات هادئة، مشت في الممرات المؤدية إلى القاعة الكبرى، حيث كانت الأضواء ترقص على الجدران، والأقنعة تلمع فوق وجوه من يدّعون أنهم أصدقاء العرش..

لكن إليسيا كانت تعرف :**الليلة، لن يكون هناك رقص..**

دخلت إليسيا القاعة الكبرى، فابتلعها الضوء.

الموسيقى كانت تعلو، الكؤوس تتصادم، والضحكات تتطاير كريش مزيّف في رياح مريبة. النبلاء، بوجوهٍ مستعارة خلف أقنعة مرصعة... عرشٍ ينتظر من يجلس عليه.

كانت ترتدي فستانًا أبيض مزخرفًا بخيوط فضيّة، وتاجًا خفيفًا فوق رأسها، كالثلج.. جميلٌ، لكنه يذوب حين يلامسه الواقع.

وصديقتها ليانا اقتربت منها وهمست : **" تبدين جميلة يا سيدتي... كما لو لم تختفي لتكتبي نبوءات على الجدران".**

نظرت إليها إليسيا بحدة، ثم ابتسمت**" في القصور، حتى الجدران لها آذان، أليس كذلك؟" "وأحيانًا.. قلوب "**.ردّت ليانا وهي تبتعد بخفة.

مرت دقائق من المجاملات، قبلات على الهواء، وعبارات عن مستقبل الإمبراطورية التي لم يبقَ منها سوى رماد السيادة. وفي لحظة اختلستها من الجمع، انسحبت إليسيا بهدوء نحو أحد الأروقة الجانبية.

دخلت غرفة صغيرة خلف الممر، وخلعت ثوبها الأبيض، وارتدت ملابس خادمة: ثوب بني بسيط، منديل على الرأس، وقفازان يغطيان الندبة التي لم تندمل بعد.

وضعت قناع الذئبة الفضي — ذاك الذي منحها إياه جدّها، لا ليحميها... بل ليُذكرها بمن هي .

ثم خرجت.

في ثيابها الجديدة، اختفت إليسيا بين الخدم، تحمل صينية من الكؤوس الذهبية. لم يعد أحد يراها كأميرة... فقط كخادمة أخرى، تتنقّل بصمت في حضرة وحوش يبتسمون.

القاعة بدت مختلفة من هذا الموضع. لم تعد مشرقة... بل غارقة في ظلّ الأقنعة.

قبل دخولها إلى قلب القاعة، مرّت إليسيا بجناح جانبي. تُحضّر فيه الزهور وصيفتان هناك تتهامسان وهما تُعدّان باقات الزهور البيضاء التي لا تزهر إلا مرة كل عشر سنوات.

"سمعت أن الإمبراطور لم يرسل رسالة منذ أسبوعين".
"ربما ينتظر أن يتأكد من سقوط القصر قبل أن يعلن موته".

وفي المطبخ المجاور، كانت شائعة أخرى تنتشر بصوت منخفض — أحد الطباخين وُجد مشنوقًا في قبو النبيذ.

قالوا: **"رآى ما لا يجب أن يُرى"**، لكن الطهاة واصلوا تقطيع اللحم وتحضير الأطباق، وكأن الموت جزء من المكونات.

في لحظة هدوء في قاعة الاحتفال، خفّت أضواء القاعة فجأة، وبقي وهج الشموع يتراقص على الجدران كأنفاس من زمن آخر. ومن بين الستائر السوداء، خرجت أربع راقصات، كأن الأرض أنبتتهن من رماد الملاحم. ارتدين فساتين داكنة تنساب كالدخان، وكل واحدة منهن أخفت نصف وجهها تحت أقنعة نصفية تمثل مراحل القمر. خطون ببطء، بإيقاع لا يتبع اللحن بل يتجاوزه، كأن أجسادهن تنطق بلغة يعرفها من شهدوا انهيار العروش. الأولى، بخفة ميلادٍ جديد، ترمز للبداية، والثانية ترقص بثباتٍ كالذهب، تحمل مجد الإمبراطورية المنسي. الثالثة، خطواتها مثقلة كأنها تسحب خلفها قرونًا من الانحطاط، أما الرابعة.. فتسير لا ترقص، تجر الليل في ذيل ثوبها، وقناعها المعتم لا يعكس شيئًا سوى الفراغ. في خصرها، وردةٌ حمراء داكنة، لكنها ليست للزينة — بل خنجرٌ نسج من بتلات ميّتة، كتهديدٍ لا يُعلن. رقصة بلا كلمات، بلا تصفيق، بلا انحناء. فقط صمت مشحون، ونظرات مرتابة، كأن الجميع فهموا الرسالة . . . ولم يجرؤ أحد على الاعتراف بها, كانت تدعى هذه الرقصة برقصة القمر.

إحدى الخادمات التي مرّت قرب إليسيا، همست لصديقتها وهي تشير إلى الراقصة الأخيرة:

"ترمز للسقوط... تضع خنجرًا من الورد في حزامها. هل هذه مزحة؟ أم تهديد؟"

ضحكت الأخرى، لكنها نظرت حولها خشية أنا يسمعهم أحد.

سارت إليسيا بخطى دقيقة، تختلط بالخدم، ولا أحد يلحظ أن عينيها تراقبان – لا تخدم.
مرّت بجانب حلقة من النبلاء، أحدهم يضحك بصوت أجوف:

"أتعلم من سيكون الخليفة؟"
"التي سترقص الليلة فوق قبرنا جميعًا".

ضحكوا, تجاهلت اليسيا هذه الكلمات اللادعة وتحركت بين المدعوين تسقي لهم النبيد, وتتنصت لكلامهم.

مرّت قرب الدوق لوكريتيوس – البدين صاحب قناع الخنزير الذهبي – الذي كان يهمس لزوجته:

"العجوز سيُقتل في وادي الشتاء.. ومكانه سيشغله من يستحق"!

ضحكت الكونتيسة ميرابيل ضحكة خافتة كالصدى: "والفتاة؟ تلك المسكينة؟ لن تصمد شهراً على العرش"!

فأجاب بثقة : "الإمبراطور لن يعود.. والأميرة ستُسقط القصر بأكمله".

جمدت الدماء في عروقها. تابعتهما بهدوء حتى وصلا إلى شرفة جانبية مظلمة، محاطة بأعمدة من الرخام. اختبأت خلف ستار من الحرير، ورأت الكونتيسة ميرابيل تسلّم خريطة القصر الى خاذم بعد أن أراها شعار دراكاريون — أفعى تبتلع ذيلها .

بينما كانت إليسيا تتراجع بهدوء للخروج من الزاوية التي سمعت فيها الهمسات الخطيرة، انزلق الخنجر الصغير من كمّها وارتطم بأرضية الرخام بصوت م واضح. في تلك اللحظة، استدار الخدم الواقف هناك، عاقدًا حاجبيه، وعيناه تتفحّصان الخادمة ذات القناع الفضي.

"أنتِ!" قال، وهو يخطو نحوها.

توقفت إليسيا مكانها، تحبس أنفاسها، يدها تلامس القناع كأنها ستنزعه للهرب أو للمواجهة. لكن قبل أن ينبس الرجل بكلمة أخرى، ظهرت ليانا من خلف أحد الأعمدة، وبخطوات مسرعة وحضورٍ واثق، تقدّمت نحوهما.

"أوه، ها أنتِ هنا!" قالت، وهي تضع ذراعها حول كتف إليسيا بنبرة مزيفة من العتاب، ثم التفتت نحو الرجل.

"معذرة، هذه الخادمة الجديدة... أرسلناها لتساعد في تقديم الأطباق. إنها لا تسمع جيدًا، ولذلك تبدو غريبة الأطوار قليلاً. أنا المسؤولة عنها هذا المساء".

نظر إليها الرجل بشكّ، ثم إلى إليسيا التي خفضت رأسها كخادمة خجلى.

"قناع الذئب؟"

ابتسمت ليانا سريعًا، وهمست وكأنها تقول سرًا مضحكًا:

"من قبيلة الشمال. يقولون إنهم يلبسون أقنعة لحماية أرواحهم من لعنة النبلاء." ضحكت بخفة، ثم همست: "دعها... لا تؤمن بالخرافات، أليس كذلك؟"

تنهّد الرجل بلا اقتناع، وهزّ رأسه وانصرف، يتذمّر عن "خادمات أغرب من اللوردات أنفسهم."

ما إن ابتعد، حتى همست ليانا دون أن تنظر لإليسيا: "كاد أن يفضحنا... عليك أن تمشي بثقة أقل".

إليسيا ردّت بنبرة خفيفة: "بل بثقة خادمة".

ابتسمت ليانا، وهمست: "أحسنتِ... لكن المرة القادمة، لا تسقطي الخناجر".

ما إن اختفى الخادم في زحام الأقنعة، حتى نظرت إليسيا الى ليانا نظرة خاطفة، ثم همست: "ابقِ قريبة من الحواف.. القاعة تنصت أكثر مما تظنّين".

ثم انسحبت بخفة، تُشبه الريح حين تمرّ ولا تُرى، لكنها تغيّر اتجاه الستائر.

لكنها لم تذهب بعيدًا. في رواق جانبي مهجور، توقفت وأخرجت من جيب ثوبها ورقة صغيرة مختومة بختم غير ملكي، نقش عليه غصن زيتون مكسور. كتبت بخطّ سريع:

"القبض الفوري على الكونتيسة ميرابيل والدوق لوكريتيوس. شبهة الخيانة وتمرير معلومات لأعداء العرش".

طيّت الرسالة بإتقان، ووضعتها في يد خادم ينتظر، لم يقل شيئًا سوى إيماءة. ثم اختفى كما ظهر. وبعد أقل من ساعة، حين بدأت الرقصة الرسمية.. انتشر الخبر كالنار في هشيم:

"تم العثور على الكونتيسة ميرابيل والدوق لوكريتيوس في إحدى الغرف الخلفية، مقتولين".

لا دماء كثيرة، لا صراخ. فقط جسدان باردان، وخنجران مزروعان في صدريهما.

خناجر صغيرة، لكن غريبة... مقابضها ملفوفة ببتلات زهور سوداء ذابلة، كالتي كانت تزيّن حزام الراقصة الرابعة في رقصة القمر. لم يكن ذلك مجرّد زينة إذًا... بل توقيع.

نظرت إليسيا من خلف القناع إلى أطياف الظلال التي تتحرّك في القاعة، وهمست في سرّها:

"الراقصة كانت نبوءة.. أو إنذارًا متأخرًا".

في الزاوية القصوى من القاعة الكبرى، حيث الضوء يتكسر على الجدران ولا يصل، وقفت إليسيا، تختبئ خلف إحدى الدعامات الرخامية، تراقب من خلف قناع الذئبة الذي أضحى لها درعًا... وقيدًا.

ما حدث قبل ساعة لا يزال يحترق في ذهنها: الكونتيسة ميرابيل والدوق لوكريتيوس، ميتان، بخناجر تشبه تلك التي زينت الراقصة الرابعة. لم يكن ذلك مجرد تنبؤ في رقصة القمر... بل كان تنفيذًا، إشارة، وربما تحذيرًا لمن تبقّى.

لكن الضربة الحقيقية... لم تأتِ من خنجر.بل جاءت حين وقع بصرها على ما لم تتوقعه أبدًا.عند حافة القاعة، تحت تمثال الإمبراطور فلادور، حيث الأعين لا تلتفت إلا احترامًا للرمز، كانت هناك هي... ليانا. صديقتها. رفيقتها منذ الطفولة، تلك التي كانت تعرف كوابيسها كما تعرف ابتسامتها. واقفة هناك، ترتدي ثوب خادمة، لكنها لا تتصرف كواحدة.

رأتها إليسيا وهي تنظر حولها بسرعة، ثم تسحب من كمّها مظروفًا أسود داكنًا — **كليلٍ لا نجوم فيه** — وتسلّمه لرجل مجهول، لم يكن من الخدم ولا من النبلاء. كان قاسي الملامح، عابسًا كأن الضحك جريمة يعرفها جيدًا. وعلى إصبعه... خاتم يحمل الرمز الذي كاد يقتلها ليلة أمس :**دراكاريون** .الأفعى التي تبتلع ذيلها.

همست إليسيا، بصوت لا يسمعه سواها: "ليانا... كيف؟"

شعرت وكأن الكلمات تنهار في حلقها كزجاج مكسور. كل الذكريات انقلبت دفعة واحدة: همسات ليانا، مزاحها، حتى ضحكتها — كلها أصبحت الآن مشبوهة. لم تكن تعلم... أم أنها كانت تعلم أكثر مما يجب؟

أرادت أن تخرج من مخبئها، أن تواجهها، أن تصرخ: "لماذا؟"
لكن جسدها لم يتحرك.

ليانا استدارت، ولمحتها إليسيا للحظة — عينيها... لم تكن خائفة، ولا مترددة. بل واثقة. حازمة.

ثم انسحبت من المكان، تذوب في الظلال كما تفعل دائمًا.

وقفت إليسيا وحدها، وسط جلبة الحفل، وسط ضجيج الكؤوس والضحكات المسمومة، وقلوبها القديمة تتكسر كزجاج نافذة في عاصفة.

مرت خادمة قربها وهمست: "تبدين شاحبة.. هل أنتِ بخير؟"

ردت إليسيا، دون أن تدير وجهها : **" أحيانًا، الجدران أكثر صدقًا من الوجوه".**

ثم مشت.

مع انطفاء الأضواء وزوال الأقنعة، بقيت الأسئلة. وفي الليل، حيث لا تُسمع إلا نبضات القلق، قررت إليسيا مواجهة الظل بالاقتراب من مصدره (غرفة الإمبراطور). خطت خطواتها نحو الجناح المحظور، تسللت كأنها تمشي فوق زجاج. وفي ركن الغرفة، تحت سجادة مصنوعة من جلد الذئب الأبيض، وجدت ورقة ممزقة لكنها ما زالت تقول ما يكفي لتزلزلها :

"أخي فلادور، جيوش دراكاريون ستحاصر وادي الشتاء في اكتمال القمر.. إن ذهبتَ،

فستموت.

إن لم تذهب، سيذبحون كل سكان العاصمة.

اخترْ موتكَ كإمبراطور..

أو عيشكَ كجبان".

—ألدريك; اسم ألدريك ارتطم بداخلها كصاعقة. عمّها الذي قُتل قبل عشرين عامًا بتهمة الخيانة.. يكتب الآن ؟

لم تكن تعرف أن الخيانة.. تُورَث كالعرش

سقطت الورقة من يد إليسيا كأنها تسقط وزن الإمبراطورية معها. لم يكتبها أحدٌ سوى ألدريك — العمّ الذي لطالما حُكي عنه كخائن، كقاتل في تاريخ الإمبراطورية.. لا كمنقذ.

لكن قبل أن تستوعب وقع الكلمات، ارتجف المقبض النحاسي للباب.

صوت الخطوات.. ثابتة، بطيئة، لكنها تحمل شيئًا مألوفًا. دون تفكير، التقطت أنفاسها وهربت من الجناح بعد أن ألتقطت الرسالة.

ركضت في الممرات الخلفية، وهي تلمس الجدران كأنها تتأكد أن هذا العالم لا يزال حقيقيًّا. الأحلام، الخيانات، والرقصات .. لم تعد تعرف أين ينتهي الحلم ويبدأ الواقع.

كان وجهًا واحدًا يخطر في ذهنها :**كايلان.**

ذاك الحارس الذي لم يعِدها بشيء... لكنه لم يكذب عليها قط. صمته كان أثقل من الكلمات، لكن إليسيا تعلم أنه ليس صمت الجبناء، بل صمت من يعرف أكثر .

في الإسطبلات، وبعد الفجر بلحظات، وجدت كايلان يجهّز حصانًا أسود اسمه "ظل الليل"، وكأنه كان يعرف أن الفجر لن يأتي إلا بدم. لكن عينيه كانتا تقرآنها قبل أن تنطق.

"وجدت رسالة. . ." قالت، دون مقدمة.

لم يُجب. فقط تقدّم خطوة، ونظر في عينيها. وكأن صمته يطلب منها أن تكمل.

"من ألدريك. كانت في جناح الإمبراطور، مخبأة. إنه لم يخنِ العرش، كايلان. . بل حذّر من سقوطه." صوّتُها ارتجف، لا خوفًا، بل من رائحة الخديعة القديمة التي بدأت تتكشّف.

كايلان بقي صامتًا للحظة طويلة. ثم قال بصوته الخفيض: "لطالما شعرت أن الحقيقة لم تُدفن مع ألدريك، بل حُجِبَت".

نظرت إليه، تنتظر ما لا تعرفه.

اقترب منها، وفتح قبضة يده — فيها قلادة معدنية صغيرة، لم ترها من قبل. نقشٌ عليها حرفان متداخلان :**ف و أ.**

قال : "وجدتها في قبرٍ لا اسم عليه... بين بقايا معركة لم يُعلن عنها قط".

همست إليسيا: "فلادور... وألدريك؟"

أومأ برأسه. "الرسالة التي قرأتِها اليوم... قد تكون الأولى فقط. هناك من يريدك أن تعرفي. وهناك من ينتظر سقوطك قبل أن تصلي".

أغمضت عينيها للحظة، وشعرت كأن العالم كله ينهار على كتفيها.

فتحت عينيها، وقالت:

"لن أكون مرآة لدماء غيري. سنعرف كل شيء... ونُسقط القناع عن كل من ابتسم وهو يخفي الخنجر".

كايلان أومأ ببطء. هذه المرة، لم تكن أميرة فقط. كانت وريثة رماد... تبحث عن لهب.

قرأ كايلان الرسالة بعين متفحصة، ثم تقلّصت ملامحه : "لكن... ألدريك يخاطب فلادور بصفته أخاه".

"أعرف." ردّت بسرعة. "أعرف... لكن ألدريك هو عمي و ابن الثاني لجدي فلادور".

كايلان ظلّ يحدق في الخط . ثم هز رأسه ببطء: "هل أنتِ متأكّدة أن هذا خط ألدريك؟"

"نعم، رأيته من قبل... على صفحات مذكّراته... على الرسائل التي خبأتها جدتي. لا يمكن أن أخطئه".

"أو ربما..." همس كايلان، وكأنما يصل إلى ما هو أخطر، "...ربما لم يكن ذلك خط ألدريك وحده".

نظرت إليه إليسيا، وجهها يطفح بالشك والرفض، لكنه أشار إلى التوقيع قائلاً: "هذا التوقيع لا يقول فقط ألدريك. لا لقب، لا رتبة... مجرد اسم. ماذا لو كان هناك ألدريك آخر؟"

صمتت إليسيا، ثم تذكرت فجأة — في دفتر نسب قديم كانت قد رأته مرة، في جناح الأنساب الملكية، كان هناك اسم مشطوب... لا يُقرأ بالكامل. مجرد حروف باهتة: "أ...د...ر...ك."

همست: "ألدريك... أخو فلادور...؟ ليس ابنه؟"

كايلان تمتم: "ربما هو الأخ الأصغر الذي لم يُذكر في أي سجل. شخص تم محوه... عمداً".

****

أخرج كايلان خنجرًا صغيرًا من معطفه، وقد لفّه بقطعة قماش قاتمة. ناولها إيّاه دون كلمة، وكأنه يسلمها وزن جبل.
"وجدته في غرفة ليانا." قال،

صوته كصفحة تاريخ تقرأها لأول مرة، "طعمه... سم دراكاريون".

أمسكت إليسيا الخنجر كما تُمسك خيانة مكتوبة. لم يكن القتال هو ما أوجعها... بل من حمل الخنجر.

لم تكن العودة إلى الجناح قرارًا... بل سقوطًا حرًّا نحو قاع الحقيقة. إليسيا لم تكن تمشي، بل تندفع بلا وعي، كأن قدميها تسوقانها إلى حيث لا مهرب .

حين تكون الخيانة أقرب من النبض، لا تعود الحياة كما كانت .

دفعت باب الغرفة.

كان كايلان ينتظرها أمام الباب، عينيه تُخفيان شيئًا لم يجرؤ على النطق به.

كانت ليانا تجلس على طرف السرير، يداها متشابكتان في حضنها، كطفلة تنتظر العقاب. وما إن رأت إليسيا، حتى انكمشت، كما لو أنّ الحقيقة سقطت من عينيها.

"ليانا. ." نطقت إليسيا الاسم كأنه سكين بين ضلوعها.

ارتعشت الخادمة، واندلعت دموعها دفعة واحدة. نهضت، لكن رجليها لم تحملانها.
جثت على الأرض، تبكي كمن تحترق من الداخل: "لم أكن أريد هذا. . أقسم لكِ، أجبروني"!
نظرت إليها بعينين تغلي فيهما النيران: "من؟"!

"دراكاريون. . أرسلوا رجلًا، قالوا إنهم يعرفون كل شيء عني، عن أمّي. . قالوا إنهم سيقتلونها إن لم أساعدهم"...

شهقت وهي تواصل:
"كانوا يعرفون أنكِ ستبحثين، أنكِ ستكتشفين... قالوا إنني سأكسب ثقتك... لأتأكد فقط من أنكِ لا تهربين من الحقيقة".

السكين سقط من يد إليسيا، لكنها لم تنكسر. اقتربت منها، ركعت أمامها، نظرت في عينيها الممتلئتين بالرعب، والندم، والتوسّل.

"كذبتِ عليّ؟" سألت بهدوء خانق.

ليانا همست: "أنا آسفة... كنت أظن أنني أستطيع حمايتكِ... أن أبقيكِ بعيدة عنهم... لكنهم، لكنهم أقوى"...

في تلك اللحظة، انكسر زجاج النافذة بصوت خاطف.

سهم.

اخترق الهواء... ثم صدر ليانا.

سقطت إلى الخلف، يدها ما زالت ممدودة كأنها تستجدي النجاة.

إليسيا، بذعر لم تعرفه من قبل، أسرعت نحوها، أمسكت بها، دمها الدافئ يتسرّب كندم لا يمكن استعادته.

الخادمة المخلصة... الخائنة... الإنسانة... تلفظ أنفاسها بين يديها.

من خلف الجدران، تردّد صراخ الحرس: "الغزاة في القصر! أعيدوا إغلاق الأبواب"!

لكن إليسيا لم تسمع إلا صوتًا واحدًا — صوت ليانا، الأخير.

همست بصوت مكسور، مرتجف، يكاد يتبخّر في الهواء" :ابحثي عن .. أدريان". .

ثم ذابت عيناها في السكون، كما يذوب الضوء في الحبر.

الريح صفّرت من خلال الزجاج المحطّم، تحمل معها بقايا ورقة، وذنب سهم، واسمًا... صار لعنة.

****

"أدريان". .

ليس ميتًا كما ظنّ الجميع.
بل مخفيًا كما خُفيت الحقيقة.

****

كأن كل الألغاز، وكل الخيانات، وكل الأحلام التي كتبتها إليسيا على جدار السرداب... كانت تقود إلى لحظة واحدة.

الآن، لم تعد تبحث عن العرش.
بل عن الحقيقة.

وعن شقيق...
قد يكون حيًّا.

*****

كان اسم "أدريان" يُدوّي في صدرها أكثر مما يفعل في أذنيها. لم يكن اسمًا عابرًا. كان وطنًا مفقودًا، حكاية غير مكتملة، طيفًا سكن أحلامها لسنوات دون أن تعلم إن كانت هي التي تتذكّره... أم هو الذي يأبى أن يُنسى.

شقيقها.

ذاك الطفل الذي ودّعته صغيرًا... والذي قيل إنه مات.

لكن ليانا، في لحظة موتها، لم تهمس بأي اسم. بل باسمه.

"ابحثي عن.. أدريان".

قامت من جانبها كما تُقام صلاة، ونظرت إلى الخنجر الذي تحمله في يدها. قبضت عليه ببطء. بتلات الورد السوداء كانت لا تزال عالقة به، كأنّ الظلال تترك توقيعها في كل موت.

عند الباب، وجدت كايلان سيفه في يده، وجهه كالصخر.

قال وهو يحدّق في الجثة: "لقد تسللوا من الممرات الشرقية. دراكاريون لم يعودوا يختبئون في الظل".

أجابت إليسيا بجمود: "هم لا يحتاجون إلى الظلال... طالما يملكون خدمًا بأقنعة".

كايلان نظر إلى السهم المغروز في صدر ليانا، وعيناه تضيقان.

"هذا ليس سهمًا عاديًا..." تمتم. "الريشة الخلفية مطلية بزيت يُستخدم فقط في وحدة الظلال الملكية"...

"ما يعني أن من أطلقه... ليس غريبًا عن القصر." أتمّت إليسيا الجملة.

تبادل النظرات، ثم هز كايلان رأسه: "علينا أن نرحل الآن، الأميرة".

ردّت: "لن أهرب".

"لستِ تهربين، بل تنسحبين لتضربي في المكان الذي لم يتوقّعوه".

نظرت إليه طويلًا. "أدريان... إن كان حيًا، فهم يبحثون عنه كما أبحث أنا".

أومأ كايلان: "أدريان هو الوريث الحقيقي بعدك. إن ظهر... سيتغيّر كل شيء".

تنفّست إليسيا ببطء. في صدرها كان شيء يُبنى... لا حزن، ولا غضب. بل تصميم. شيء من معدن نادر لا يصقله إلا الخراب.

"سأجد أخي." قالت.

"وكيف ستبدئين؟" سألها.

نظرت إلى الجثة، ثم إلى السهم، ثم إلى الخنجر.

"بالذين يقتلونه كل يوم، وهو لم يمت بعد".

ارتفعت الأبواب الثقيلة للقاعة الكبرى كما لو أنها تنشقّ عن التاريخ نفسه. لم يكن في الداخل ضيوف يحتفلون... بل وجوه مصدومة، متوترة، ترتدي بقايا أناقتها كدروع خائفة. بعضهم جلس على أطراف القاعة، والبعض الآخر وقف متجمّداً في مكانه، كأنما الزمن انكمش في لحظة ارتياب.

دخلت إليسيا بخطى ثابتة. دون قناع. دون تاج.

بل بوجه امرأة رأت كل شيء... ولم تعد تخاف شيئاً.

كانت ترتدي رداءً بسيطًا ملوثًا ببقع دم — دم ليانا، دم الحقيقة.
خلفها، وقف الحراس الذين أقسموا الولاء لا لشخصها، بل لما تمثّله الآن: نهاية الوهم، وبداية العدّ العكسي.

اقتربت من المنصة المركزية، حيث يُعرض العرش في الأعياد كمجرد زينة.
وقفت أمامه، ولم تجلس.

تقدّمت الكونتيسة إليورا، ترتجف تحت قناعها النحاسي، وقالت:
"مولاتي... لم نُخطر... بعودتكِ علنًا".

نظرت إليها إليسيا نظرة واحدة فقط. وسقط القناع من وجه الكونتيسة، كما سقطت الهيبة عن وجوه غيرها.

ثم سُمع صوت ناعم، ساخر من الظلال. رجل قصير البنية، نحيف، يصفّق ببطء.

"ظهور جميلة، يا أميرتي. لكن المسرح ينهار... والعرش ليس سوى خشبة محترقة".

كان اللورد رافينور، أحد كبار مستشاري الإمبراطور السابق. نصف القاعة تعرف ولاءه... والنصف الآخر يخشاه.

"جئتَ لتراقب؟" سألت إليسيا.

"لأراقب النهاية. هل ستقتلينا جميعًا؟ أم فقط من خانكِ؟"
ضحك ضحكة خافتة، ثم أضاف: "وهل تعرفين الفرق؟"

تقدّمت منه، وكل خطوة منها صفعة على وجوه المنافقين.

"الخونة لا يُقتلون... بل يُكشفون".

ثم أشارت إلى الحراس خلفها: "فتّشوا جناحه. افتحوا أرشيفه. وابحثوا عن الختم... الأفعى التي تأكل ذيلها".

لم يحتج الأمر إلا دقائق. وفي تلك الدقائق، لم تترك إليسيا العرش. وقفت أمامه، تحدق في كل من كان يظنها لن تعود... أو لن تجرؤ.

عاد الحراس، يحملون خريطة القصر، نسخة طبق الأصل لتلك التي سُلّمت في الشرفة. موقعة بخط رافينور.

لم تنطق بكلمة. فقط نظرت إليه.

لكن البقية فهموا.

وقف البعض، ثم انحنوا. آخرون نزعوا أقنعتهم — لا كدليل ندم... بل خوفًا من الدور القادم.

وقفت إليسيا وسطهم جميعًا، وقالت:

"أنا لم أعد أميرة من ورق. ولا خادمة تتسلل في الظلال. أنا وريثة فلادور... وابنة الإمبراطورية التي خانها أولادها. ومن هذا اليوم، لا خيانة بعد اليوم بلا اسم. ولا اسم... بلا عدالة".

رفعت رأسها، نظرت إلى الحاضرين:

"أعلنوا الأمر: لا وجود لأي غزو. من يردد عكس ذلك... يخون".

ثم التفتت الى اللورد رافينور, "كانت مزحة جميلة".

قال بصوت هادئ، ببرود متكلف: "مولاتي... لا أفهم ما المقصود".

تقدّمت منه إليسيا، خطوة واحدة فقط، كانت كافية لتسقط كل أقنعته التي لم يصنعها الذهب.

رفعت الورقة أمام وجهه — الخريطة التي وقّعها، وهي نفسها التي سُلّمت في الشرفة للعدو.

"توقيعك." قالت بهدوء مميت.

ثم رفعت السهم الذي اخترق قلب ليانا، وقالت: "وسهامك".

صمت القاعة كان ثقيلًا، إلا من صوت أنفاس رافينور المضطربة.

تابعت إليسيا، بصوت منخفض لكنه كفيل بخلخلة جدران من الأكاذيب:

"قتلت خادمتي، خدعت المجلس، كدت تزرع الفوضى في قلبي... كل هذا، لأني اقتربتُ من الحقيقة؟ من أدريان؟"

ارتبك لوهلة، ثم قال:

"أنتِ لا تعرفين ماذا تفعلين، يا مولاتي. لقد اقتربتِ من نارٍ ستأكلكِ، كما أحرقت من سبقكِ".

قاطعته وهي ترفع يدها بإشارة واضحة للحراس: "سيُسجن في الزنزانة العليا... لا يُسمح له بالكلام مع أحد".

ثم أضافت وهي تقترب منه أكثر، تهمس في أذنه: "وللمفارقة... ستُحاكَم في المكان ذاته الذي خُتمت فيه خيانة عمّي".

شدّ الحراس ذراعيه، وأُخرج من القاعة، وصدى خطاه يتلاشى وسط جدران من رخام وعداوات.

أغمضت إليسيا عينيها لحظة، كأنها تستمع إلى شيء أقدم من كل هذا... إلى صمت جدّها، إلى صرخة أمّها، إلى نداء ألدريك الممحو من الذاكرة.

ثم نظرت إلى الجميع وقالت: "من هنا تبدأ الحرب الحقيقية. ليس ضد العدو... بل ضد ما نَسَيناه".

وتقدّمت نحو العرش، لا كرمز، بل كمنصة حكم.

وجلست.

في اللحظة التي هدأ فيها الضجيج، وبدأ الحاضرون يستوعبون ما حدث، اقترب منها أحد أعضاء المجلس، رجل طاعن في السن يُدعى اللورد سيفاليوس ، كان صامتًا طوال الوقت، يراقب بعين لا تخطئ تفاصيل الخداع... ولا تمر عليه نبرة صادقة دون أن تُقلقه.

انحنى قليلاً، ثم قال بصوت منخفض لا يسمعه سواها:

"مولاتي... كيف عرفتِ أن الغزو لم يكن حقيقيًا؟ أن الأمر كله خدعة؟"

نظرت إليه إليسيا بعينين لا تزال فيهما نيران لم تنطفئ، وابتسمت ابتسامة خفيفة، ثم همست:

"لأنهم لا يريدون خراب الإمبراطورية... ولا حمام دم".

رفعت عينيها نحو القاعة من جديد، ثم تابعت:

"لو أرادوا ذلك، لفعلوا. لديهم الخريطة، لديهم الأقنعة، ولديهم الخونة. لكنهم لم يهاجموا... لم يُطلق سهمٌ واحد على النبلاء".

سيفاليوس عقد حاجبيه: "رسالة؟ عن ماذا؟"

قالت بنبرة أهدأ، كأنها تفكر بصوت مرتجف:

"إنهم يريدون تغيير شيء. ليس فقط إسقاطي، ولا حتى اغتيالي. يريدونني أن أكتشف شيئًا... شيئًا دُفن في قلب الإمبراطورية. كل شيء كان موجهًا نحوي، كأنني المفتاح... أو الملعونة الأخيرة التي يجب أن تنفض الغبار عن السرّ".

ثم ساد صمت، قبل أن تضيف، بنبرة أعمق، كمن أدرك فجأة ما لم تُرِده أن تصدّقه:

"وهم يخشون قتلي، يا سيفاليوس... لأنهم يحتاجونني حيّة. لا أحد غيري يستطيع فتح الباب الذي يختبئون خلفه. لا أحد غيري... يحمل دم فلادور في عروقه".

سيفاليوس همس بذهول: "أنتِ لستِ الهدف... بل الأداة؟"

أجابت إليسيا، وعيناها تشعّان بوميض لا يشبه النبلاء ولا الورثة:"بل أنا الطُعم... والمفتاح... والاختبار".

قبل أن تكمل كلامها, اقترب أحد الحراس بخطوات متوترة. انحنى قليلًا، وهمس: "جلالتكِ... لدينا أمر طارئ".

نظرت إليه إليسيا دون أن تغير تعبيرها. كانت عيناها كالزجاج... ساكنتين، لكن تنذران بالعاصفة.

"تكلّم".

قال الحارس، مترددًا: "جثة الخادمة... ليانا... اختفت".

ساد الصمت، كما لو أن كل الأصوات في القاعة خنقت نفسها فجأة.

"ماذا تعني اختفت؟" سألتها ببطء، كأنها تجاهد لتصديق الكلمة.

"وجدنا أثرًا للدماء يصل حتى الممر الخلفي... ثم يتوقف. لا كسر في النوافذ، ولا أثر اقتحام. فقط... لا جثة".

شهقت إحدى الوصيفات في الزاوية، لكن لم يجرؤ أحد على الكلام. أما إليسيا، فوضعت يدها على قلبها، كما لو أن قطعة منه أُنتزعت للتو.

همست، وكأنها تكلم شبحًا في عقلها: "إذًا... حتى الموت، لم يكن كافيًا لإبعادها عن لعبتهم".

ثم رفعت بصرها نحو الحارس، وقالت: "شدّدوا الحراسة على كل المخارج. وفتّشوا كل الأروقة. إن كانت حية... أريد أن أراها. وإن كانت ميتة..."

"أريد أن أعرف من يحتاجها أكثر مني".

****

في أحد أروقة القصر الجانبية...

كان الصمت كثيفًا كأن الجدران نفسها تستمع.

إليسيا وقفت أمام النافذة الطويلة، تحدّق في خط الأفق حيث يلامس الضوء البارد أبراج العاصمة. على كتفها عباءة رمادية لم تكن جزءًا من زيّ البلاط، بل أقرب لزيّ المسافرين، الهاربين... أو الباحثين عن نهاية الطريق.

دخل كايلان بهدوء، خطواته لا تُسمع، لكنه كان يعلم أنها تشعر به قبل أن يقترب.

قال: "سمعتُ أنكِ أغلقتِ مجلس الحرب. ولم تعودي إلى جناحك".

أجابت دون أن تلتفت: "المعركة الأهم... لم تقع هنا".

اقترب خطوة، صوت صرير الأرضية الخشبية يقطع السكون.

"إلى أين؟"

استدارت إليه، ونظرتها كانت كأنها خُطّت بالحبر والدم: "إلى وادي الشتاء".

صُدم، لكنه لم يعلق. فقط حدّق فيها طويلًا.

"فلادور؟" سأل أخيرًا.

أومأت: "آخر من رأى ألدريك حيًا. آخر من قاتل دون أن يبرر.جدي قد ذهب الى الفخ بقدميه...وأيضا لأبحث عن ألدريك. فأنا لا أبحث عن حكاية، بل عن رجل حمل كل الأجوبة ومات معها... أو خبأها قبل أن تموت".

كايلان سألها ببطء، كما لو أنه يعرف الجواب ويخشاه: "وهل ستذهبين وحدك؟"

أجابت، بنبرة صلبة: "هذه ليست رحلة تاج... بل دم".

سكت لحظة، ثم اقترب أكثر وقال: "إن كانت دمًا... فدعي سيفي يرافقه".

لكنها هزّت رأسها بلطف وكأنها كانت تنتظر هذا السؤال: "لنذهب".

نظر إليها طويلاً، ثم قال بهدوء: "أعلم أنكِ ستنجحين... لكن لا أظنّكِ ستعودين كما أنتِ".

ابتسمت، ابتسامة حزينة، وقالت: "هذا بالضبط ما أرجوه".

لم تكن مغادرتها قرارًا بسيطًا... بل كأنه خلع جلدٍ تربّت عليه.

بعد مغيب شمس اليوم التالي، كان القصر لا يزال يتنفّس أنفاس الرعب التي تركها سقوط رافينور، واختفاء ليانا، والخريطة التي كشفت أن العدو لم يكن خلف الجدران... بل تحتها.

إليسيا لم ترتدِ درعًا. بل رداءً رماديًا طويلًا يخفي ملامحها عن عيون الجواسيس. لم تخبر المجلس بوجهتها، ولم تُصدر مرسومًا رسميًا بالمغادرة.

كانت تعرف أن ما ينتظرها... لا يُقابل بالمراسيم.

كايلان كان ينتظرها عند بوابة القصر الشرقية، وحصانان مجهزان: أحدهما أسود، كأن الليل صُبغ عليه، والآخر رمادي كغبار النسيان.

نظر إليها وسأل دون صوت، فقط عينيه: هل أنتِ مستعدة؟

فأجابت بخطوتها نحوه.

قال بصوت منخفض: "أرسلتُ وحدات استطلاع قبلك، لن يتبعنا أحد من الحرس. لكن"...

قاطعته وهي تمتطي الحصان الأسود:
"لا أريدهم أن يتبعوني. إن كانوا يريدون الحقيقة... فليلحقوا بي حين يرون دخانها".

تنهّد، ثم لحق بها.

عند الحافة الأخيرة للقصر، حيث تنقلب الحدائق إلى غابة، توقفت إليسيا للحظة. نظرت إلى الأبراج التي تربّت فيها، إلى النوافذ التي كانت تحدّق منها في النجوم بحثًا عن إجابة، وإلى العرش الذي جلس عليه الخونة أكثر مما جلس عليه الأوفياء.

ثم قالت، لا لكايلان، بل للعالم كله: **" لن أعود حتى أعرف من أنا... وإن كنتُ وحدي من تبقّى".**

وانطلق الحصانان، كما لو أن الريح هي من تقودهما.

خلفها... بقايا إمبراطورية.

وأمامها... وادي الشتاء.

في قرية صغيرة تُدعى **" نيرفال"**، وعلى حافة السوق، وقفت عربات خشبية ضخمة تستعد للمغادرة نحو الشمال. كانت قافلة تجارية، تنقل أقمشة وملحًا وبعض المسافرين الباحثين عن هروب أو عمل أو مغامرة.

اقتربت إليسيا من العجوز الذي يقود القافلة، وقالت:
"إلى الشمال؟"

نظر إليها، ثم إلى عينيها. تلك العيون لا تُشبه أعين الخادمات، لكنها لم يسأل. فقط أومأ: "نحو وادي الشتاء؟"

هزّت رأسها.
"نعم".

ركبت.

كانت خطوات الأحصنة ثقيلة فوق الحصى الرطب، والعجلات تصدر أنينًا يشبه تنهيدات المسنين. رائحة الخشب المبلل، والملح، والغبار... ملأت الجوّ، وكأن القافلة لا تحمل بضائع فقط، بل أعمارًا ضاعت بين المدن والخرائط.

في العربة الأخيرة، جلست إليسيا وظهرها إلى الطريق، تنظر إلى كل ما يبتعد، لا إلى ما يقترب.

على يمينها جلس كهل كفيف. وعلى يسارها امرأة بملامح قاسية، وجهها مسلوخ من التعب، وذراعها ملفوف بضمادة قديمة.

قالت المرأة فجأة: "أنتِ ذاهبة لوادي الشتاء...؟"

نظرت إليها إليسيا بحذر، ثم أومأت.

قالت المرأة، دون أن تغيّر نبرتها: "الشتاء لا يعيش فيه إلا من يعرف معنى الفقد. الطريق ليس باردًا... لكن القلب هو الذي يتجمد هناك".

رجل من العربة المقابلة — يبدو كصانع خزف — ضحك ضحكة مرّة: "إن بقي هناك شيء من الوادي أصلًا! كان واديًا يفيض بالضوء، الآن لا يجرؤ على ذكره إلا الحمقى أو الحالمون".

ردّت إليسيا بهدوء: "ربما الحالمون هم من يعيدونه للحياة".

رمقها الرجل بنظرة فاحصة، ثم قال: "أنتِ لستِ خادمة... ولا تاجرة. عيناكِ لا تبحثان عن لقمة، بل عن جثّة".

سكتت.

لكن المرأة التي بجانبها قالت فجأة: "جئتِ تبحثين عن أحد، أليس كذلك؟"

رفعت إليسيا عينيها إليها.

تابعت المرأة، بنبرة أهدأ: "جميعنا نهرب من شيء... لكنكِ؟ أنتِ تركضين نحوه".

تنهد الكهل الكفيف، وقال وكأنه يتكلّم مع الغابة نفسها: "الذين يركضون نحو اللهب... إما يحترقون، أو يولدون من جديد".

مرّت لحظة صمت.

ثم قالت إليسيا أخيرًا، بهدوء: "أنا لا أهرب من شيء... بل أركض نحو من بقي. حتى لو كان رمادًا".

همس الكهل: "الرماد لا يُسافر مع الريح، بل ينتظر من يجمعه".

صمت الجميع.

وفي تلك الليلة، لم يناموا كليًا.

فوق رؤوسهم، كانت الغيوم تتراكم.

وأمامهم... طريق لا يعبّده سوى الشك.

رجال طيبون، بسطاء، عجائز يتبادلون الحكايا، وطفل يرتّل أغانٍ منسية, للوهلة الأولى كان كل شيئ بخير. لكن قبل الغروب بلحظات، تغير كل شيء.

في لحظة واحدة — صمتت العصافير.

ثم... صفير.

سهم. انغرس في رأس البغل الذي يقود العربة الأولى.

صرخات.

وانفجرت الفوضى.

من بين الأشجار، انقضّ رجال بوجوه مغطّاة بخرق سوداء، وأسلحة صدئة، لكن نظراتهم كانت حادة كالسكاكين. لم يطلبوا ذهبًا. لم يتكلموا.

جاءوا ليُسقطوا القافلة.

ركض الناس، سقطت النساء، وصرخ الطفل الذي غنّى قبل لحظات.

لكن من مقدمة القافلة ... نزل **كايلان** من حصانه.

لم يقل شيئًا.

جذَب سيفه.

ثم كسر الهواء.

رجل، اثنان، ثم ثالث سقطوا قبل أن يفهم الباقون من هذا الذي يقاتلهم.

أحد المهاجمين حاول مباغتته من الخلف، لكن كايلان استدار في اللحظة المناسبة، طعنه بدقة، وسحب سيفه كما يسحب الحقيقة من فم الكذب.

صرخ شيخ من القافلة: "إنه الحارس... الحارس الملكي"!

إليسيا، من طرف القافلة، كانت تسحب امرأة عجوزًا إلى برّ الأمان، وعينيها لا تفارقان كايلان.

كان يقاتل كمن فقد كل شيء من قبل... ولن يسمح أن يُسلب منه شيءٌ آخر.

في دقائق، تحوّلت أرض الهجوم إلى مسرح من الجثث والغبار.

الناجون تجمعوا. الخوف في عيونهم... امتنانهم أعمق من الكلام.

ثم، من جيب أحد المهاجمين، سقط شيء ملفوف بجلد قديم.

التقطه كايلان، فتحه... ثم جمد في مكانه.

ناولها إلى إليسيا.

كانت رسالة قصيرة، لا اسم مرسل... فقط جملة واحدة، كما لو كُتبت بنية تُقطّر سمًّا:

"إليسيا خرجت من القفص... حان وقت جمع الذئاب".

سكت الجميع، عيونهم تتساءل من هي... ومَن هؤلاء "الذئاب."

لكن إليسيا، بوجه مغطّى بغبار الطريق ووهج الغضب، قالت بصوت مسموع: "أينما اجتمع الذئاب... سيكون بيننا من يقودهم. لكن ليس كما يريدون".

نظرت إلى القافلة، وقالت: "لن أترك أحدًا خلفي. من يؤذيكم... يؤذيني".

ثم التفتت إلى كايلان. لم يتكلم، فقط أومأ برأسه — وهو يحدق في الدم.

المعركة الأولى انتهت.

لكن الحرب بدأت.

**

نامت القافلة على صوت الريح، ونام كايلان جالسًا قرب العربة، يده لا تبتعد عن سيفه، وعيناه تغفو إحداهما وتترصّد الأخرى.

أما إليسيا... فغفت أخيرًا.

لكن النوم لم يكن رحيمًا.

في الحلم...

كانت تقف وسط قاعة العرش — لكن كل شيء مغطّى برماد كثيف، يتساقط من السقف كثلج أسود.

العرش محترق .والنوافذ مغلقة بحديد صدئ، تنبعث منه أصوات أنين لا تشبه الريح.

ثم ظهر **باب لم تره من قبل** .باب حجري، محفور عليه جملة كانت قد قرأتها قبلا :

تنزف رماداً لا دماً.

كانت تريد أن تبتعد. لكن قدميها تسيران وحدهما. حين فتحت الباب، وجدت نفسها في **غابة... لكن الأشجار كانت مقلوبة، جذورها في السماء، وأغصانها تغوص في الأرض.**

ثم سمعت الصوت.

لم يكن صوتًا بشريًا، بل همسًا معدنيًا، كأن أحدهم يكتب على سيف بدل الورق:

"أنقذتِ القافلة... لكن من يُنقذكِ من القصة التي كُتبت قبل أن تولدي؟"

"الشتاء لا ينسى... والدم القديم لم يُمحَ، بل انتظر".

"الذئاب لا تهاجم وحدها، بل حين تُستدعى".

سمعَت وقع خطوات.

لم يكن وقع عدوّ، ولا خطوات ندم.

بل إيقاع مألوف... قديم.

استدارت.

كان هو.

واقفًا وسط السواد، دون سلاح، دون درع.

وجهه كما كانت تتذكّره... لكن بعينين تحملان عُمق من مات أكثر من مرّة.

ألدريك.

ابتسم لها، ابتسامة حزينة، وقال : **" تأخرتِ".**

شهقت، كأن الحلم صار حقيقيًا: "أنت...؟"

قال بنبرة ناعمة، لا يرفع صوته : **" أنا لست هنا... لكنكِ هنا".**

فجأة وجدت نفسها تسير في ممر طويل لا نهاية له، جدرانه من زجاج قاتم، تعكس ظلها فقط... لكن ظلها لم يكن يسير مثلها. كان متأخرًا، ثم متقدّمًا، ثم يتحرك من دونها.

على الجدار الأيسر، ظهرت صور مشوّشة — طفل يمسك يد شقيقه، ثم نفس الطفل يصرخ، يُسحب بعيدًا في ضباب أسود.

على الجدار الأيمن... انعكاس العرش، يتصدّع ببطء، تتساقط عليه أوراق من ذهب... لكن حين تلامس الأرض، تتحول إلى رماد.

سمعت همسة.

ليست همسة بشر... بل صوت معدني، كأن صدى سيف يُسحب من غمده داخل قلبها.

"هل تظنين أن الحقيقة تظهر في النور؟"

التفتت... لا أحد.

ثم ظهر ظلٌ واقف عند نهاية الممر.

لم تكن ترى وجهه، فقط عباءة طويلة، وخاتم من ذهب في يده اليمنى، يحمل نقش الأفعى التي تأكل ذيلها.

"من أنت؟!" صاحت.

ردّ الصوت من الظلال:

"من كنتِ تخافين أن تكوني".

اقتربت خطوة، لكن الأرض تحتها تحوّلت إلى مرايا متكسّرة، وسمعت صوتًا آخر — صوتًا تعرفه.

صوت ألدريك.

لكنه لا يناديها، بل يقرأ... كأنه يروي قصة.

"في قاعة مغلقة، اجتمع الذئب والوريث، وأُغلقت الأبواب بين الدم والدم".

"الولد الذي عرف أكثر من اللازم، أصبح شبحًا في قصص الخونة".

"سقط المفتاح في بئر الصمت... ومن تجرأ على سحبه، سيسمع الحقيقة تمزّق الأحياء".

شهقت إليسيا. حاولت التقدم، لكن الزجاج تحت قدميها جعلها تنزف دماً.

رفعت رأسها.

صوت ثالث خرج من فمه — لا يشبه صوت ألدريك، بل صوت طفل صغير:

"أين كنتِ حين كنت أصرخ؟"

قالت إليسيا بذعر: "من أنت؟"!

أجاب ألدريك: "أنا الإجابة التي لم تُسأل بعد".

ثم احترق.

كل الظلال، كل الصور، كل الأجوبة احترقت في لحظة واحدة، كأن الحقيقة ترفض أن تولد بسهولة.

شهقت إليسيا، واستفاقت جالسة. أنفاسها تتسارع، يداها ترتجفان، والنار أمامها اختفت كما لو أن الليل نفسه اختنق.

"حلم فقط..." همست.

لكن شيئًا لم يكن طبيعيًا.

السماء فوقها... بلا نجوم. كأنها قُشرت.

والقافلة... لا أثر لها.

لا كايلان، لا العجوزة، لا الطفل الذي غنّى أغنيته.

الصمت.

نهضت، خطواتها فوق العشب لا تُصدر صوتًا. نظرت حولها، وإذا بالغابة نفسها تبدو وكأنها لوحة، لكن رسمها فنان أعمى.

ثم... انشقّ الجدار الشجري أمامها، كما لو أن الغابة فتحت فمها لتبتلعها.

ومن الظلام، خرج ضوء واحد... ينبض.

تقدّمت نحوه، وسمعت الصوت مجددًا. صوت ألدريك.

لكنه هذه المرة لم يكن يروي.

كان يغنّي.

"من يتبع الدم إلى الباب المنسي...

قد يفتحه.

وقد يضيع فيه".

نادت: "ألدريك؟! أين أنت؟"!

ظهر باب حجري وسط العدم، عليه نفس الكتابة : **نتزف رماداً لا دماً** ... لكن الاحرف كانت تتحرك، و في كل لحظة يظهر وجه تعرفه ... وجه أمها، ثم وجه كايلان، ثم...وجهها هي.

ثم لمحت حجرة بجانب الباب غريبة الشكل منقوشاً عليها كتابة غريبة : " عرش لا يرثه النور "

فتحت الباب.

كان خلفه درج لا ينتهي... ينزل فقط.

أجبرت قدميها على النزول.

كل درجة... كانت تصرخ.

كل خطوة... تبتلع نورًا.

ثم، في قاعة ضخمة، بلا سقف، وجدرانها من دخان متجمّد، وجدت ألدريك واقفًا.

لكن نصفه كان جسدًا، والنصف الآخر... ظل.

قال دون أن ينظر إليها:

"هذه ليست رؤيا، إليسيا. هذا تحذير".

"تحذير من ماذا؟"

"منكِ".

اقتربت، لكنها لم تستطع لمسه. كان كأن بينهما زجاجًا من نار.

تابع:
"كل من تحبّينه... إما سيُستخدم ضدكِ، أو سيُدفن باسمكِ".

"قل لي ماذا أفعل!" صرخت.

ابتسم ابتسامة باردة، وقال:

"افتحي البئر... لكن لا تُصدّقي أول من يخرج منه".

ثم بدأ يذوب... كما يذوب الحبر في المطر.

وكل ما بقي...

هو مرآة مكسورة، تنظر إليسيا فيها... لتجد أن انعكاسها لم يعد يطابقها.

استيقظت إليسيا.

هذه المرة، كانت مستلقية على العشب، والندى يغمر وجنتيها. الشمس بدأت في البزوغ، لكنها كانت شمسًا باهتة... شاحبة كأنها خُذلت من ضوءها. صوت العصافير عاد... لكنّه بدا كما لو أنه يتكرر، كاسطوانة مشروخة.

نظرت حولها.

كايلان نائم بجانبها.

النار انطفأت... لكن الرماد لا يزال دافئًا.

مدّت يدها تتحسّس جيبها... قطعة الحجر... لا تزال هناك.

همست:
"لا يمكن... لقد حلمت أنني وجدتُها... فقط حلم".

فجأة... ارتفع الضباب. غطّى كل شيء، كثيفًا، خانقًا. استدارت لتوقظ كايلان. لكن لم يكن كايلان. كان جسده... لكن وجهه تغيّر.

كانت ليانا.

ميتة.

وجهها شاحب، الدم في صدرها، لكنها تفتح عينيها وتنظر إليها مباشرة.

قالت بنبرة هامسة: "أنتِ لم تستيقظي بعد، إليسيا".

شهقت إليسيا وتراجعت، لكن الأرض تحتها اختفت.

سقطت. ولم تصرخ.

استفاقت مجددًا، جالسة في سرير ملكي. الستائر حمراء، الأرض من الرخام، النافذة مفتوحة.

كانت في جناحها القديم... في القصر.

لكنها تعرف أنها ليست هناك.

النوافذ لا تطل على المدينة... بل على لا شيء.

لا سماء. لا أرض.

أمامها مرآة طويلة.

اقتربت.

انعكاسها كان يبتسم.

لكنها لم تكن تبتسم.

انعكاسها قال: "حتى تستيقظي... يجب أن تموتي أولاً".

شهقت إليسيا مجددًا — وتنهّدت، بعمق.

هذه المرة، كانت في العربة.

نفس العربة. نفس القافلة. ذات الطرق الوعرة تحت عجلات الخشب.

على يسارها... المرأة العجوز نائمة.

وعلى يمينها... كايلان، يرمقها بقلق.

"أنتِ تتعرقين." قال.

نظرت إليه ببطء.

"هل هذه... يقظة؟" همست.

قال وهو يرفع حاجبيه: "حسب ما أعرف، لا أحد يضربني بسؤال كهذا في الحلم".

لم تضحك.

مدّت يدها بهدوء إلى جيب عباءتها.

لم تجد شيئًا.

قطعة الحجر... اختفت.

وقفت، واتجهت إلى حافة الطريق، حيث كان الليل لا يزال يحكم.

همست لنفسها: "الغابة المقلوبة... الرجل ذو المرآة... الكتابة الغريبة"...

ثم أغمضت عينيها.

"إنها لا أحلام، وأنا لن أغض الطرف".

كايلان اقترب، ووضع يده على مقبض سيفه كعادته حين يتهيّأ لما لا يُقال: "إلى أين؟"

أجابته، دون أن تلتفت:

"نحو من يعرف تفسير المرآة... والغابة التي تنمو من السماء".

ثم مشت.

في اليوم الخامس من الرحلة،

كانت القافلة تمرّ عبر وادٍ ضيّق تحيط به هضاب مغطاة بأشجار التنّوب والصنوبر، والدخان الخفيف يتصاعد من نار الصباح، حيث يتبادل البعض قطع الخبز المجفف مع شرائح لحم قديم.

جلست إليسيا قرب العجلة الأمامية للعربة، تمسح الغبار عن وجهها وتحدّق في الطريق، بينما كايلان يقف بجانبها، صامتًا كالعادة، عيناه لا تتركان الحدود الصخرية للوديان من حولهم.

اقترب منهما شيخٌ نحيف بملامح سمراء مشدودة وعمامة رمادية تغطي نصف وجهه. كان من ركاب القافلة القُدامى، صامتًا معظم الوقت، لكنه يتكلم حين يُحس أن شيئًا ما يتحرّك تحت الكلمات.

قال بصوت أجش: "أنتم لا تتجهون فقط إلى وادي الشتاء... أليس كذلك؟"

نظرت إليه إليسيا دون رد.

تابع الشيخ، وهو يُخرج من كيسه خريطة قديمة، متهالكة، ممهورة بختم لا يُرى إلا حين يلامسه ضوء كافٍ:
"يوجد دير قديم ليس بعيدًا عن هذا الطريق. لا تظهره كل الخرائط، لكنه ما زال هناك... صامدًا".

كايلان سأله: "دير؟ تابع لأي طائفة؟"

أجاب الشيخ: "ليس تابعًا... بل سابق للطوائف. قديم لدرجة أن الطوائف نفسها كانت تستشيره".

أليسيا رفعت حاجبها: "ولماذا هذا مهم؟"

اقترب الشيخ، صوته صار أكثر همسًا:
"لأن رجال ذلك الدير... لم يكونوا رهبانًا عاديين. كانوا... مستشاري الدم. العقل الذي ساعد على

تشكُّل الإمبراطورية قبل أن تظهر التنانين على الرايات. إذا كان هناك من يعرف الوجه الحقيقي للتاج... فربما هم".

تبادل كايلان وإليسيا نظرة طويلة.

قال كايلان: "ما الدليل أن أحدهم ما زال حيًّا؟"

أجاب الشيخ بابتسامة رمادية: "ليس عليك أن يكونوا أحياء... يكفي أن آثارهم ما زالت تتنفس".

تمتمت إليسيا: "دير منسي... ومستشارو الدم"...

ثم رفعت عينيها إلى الأفق، وقالت: "دلّنا عليه".

هزّ الشيخ رأسه: "سترونه قبل الغروب... حين تنحني الأشجار فجأة، وترى الصخور تأخذ شكل أرجل تصلي".

كايلان سأل بهدوء: "وهل زُرته من قبل؟"

ابتسم الشيخ، ثم قال: "أنا وُلدت فيه".

ثم ابتعد دون كلمة أخرى، كأنّ كل ما أراد قوله قد قيل... والباقي على الطريق.

ما بعد الظهيرة،

وقفت القافلة في قرية صغيرة تُدعى *ألتراين*، لا تظهر على الخرائط، تقع في ظل جبل مائل الرأس، يقال إن قمته تلمس الغيوم حتى في أيام الصيف.

كان السكان نادرين، صامتين، يراقبون الغرباء بعيون متوجّسة. كانت النوافذ نصف مفتوحة، والأبواب لا تُغلق تمامًا، كأنّ القرية تخاف أن تُحبس وحدها في الداخل.

تقدمت إليسيا نحو بائع ملح متجعد الوجه، وجلده يشبه الورق الجاف. قالت بلطف: "نبحث عن دير قديم قريب من هنا... يقال إنه بين الأشجار عند حافة الجرف".

لم ينظر إليها. فقط قال: "إذا كنتم تنوون زيارته... لا تقيموا الليل هناك".

كايلان رفع حاجبه: "لماذا؟"

رفع الرجل رأسه أخيرًا، وكانت عيناه رماديتين، كأنّهما رأتا أكثر من اللازم: "لأن المكان لا يرحب بالزائرين الذين يطرحون الأسئلة".

تدخّلت امرأة من خلفه — يبدو أنها زوجته — وقالت بنبرة أقرب للرجاء: "نُنذر كل من يمر. ليس لأننا نكرهه، بل لأنه ...*الدير يسمع*".

أليسيا تقدمت خطوة: "ماذا يسمع؟"

الرجل همس: "الدم حين يتذكّر".

ثم التفتا عنهما، ولم يتكلما مجددًا.

قبل أن يغادروا، اقتربت منهما فتاة صغيرة، شعرها مربوط بخيط أحمر. ناولت إليسيا حجرًا أبيضًا صغيرًا، وقالت:

"جدي قال إن من يخطو باب الدير... يجب أن يحمل شيئًا طاهرًا... وإلا لن يُسمح له بالخروج".

سألتها إليسيا بلطف: "ما اسمك؟"

"ميرنا".

"وهل دخلتِ الدير من قبل يا ميرنا؟"

هزّت رأسها بسرعة: "لا. لكنه دخلني مرة... في الحلم".

ثم ركضت، تاركة خلفها الحجر الأبيض بين يدي إليسيا، ونبضًا باردًا تحت الجلد.

حين عادوا إلى العربة، قالت إليسيا بهدوء: "ليس علينا فقط أن نعرف... بل أن ننجو بعد أن نعرف".

قال كايلان، وهو يصعد خلفها: "حين يهمس الماضي، الأفضل أن نُصغي... لكن بسيوف مشحوذة".

ثم انطلقت القافلة.

وأمامهم... كان الدير ينتظر.

عند مفترق الطريق...

توقفت القافلة في فسحة غاباتية حيث ينقسم الطريق: أحدهما يتابع شمالًا عبر الهضاب، والآخر — ممر ضيق — يختفي بين أشجار ملتفّة كأنها تنحني لتخفي سرًا.

العجوز قائد القافلة ترجل من عربته، اقترب من إليسيا وقال:
"هذا أبعد ما يمكننا المضيّ فيه. من هنا... لا تعود العجلات".

أومأت إليسيا بهدوء، ثم التفتت إلى وجوه الرفاق الذين سافروا معهم: العجوزة، الصبي، الكهل الأعمى، وحتى المرأة ذات الذراع الملفوفة، جميعهم رمقوها بنظرات مختلطة من الاحترام... والخوف.

قالت المرأة، وهي تشدّ عباءتها حول كتفيها: "الدير لا يحب الحشود. من يدخلونه... إما يُنسَون، أو يُخلَّدون".

ابتسم الصبي، لكنه لم يقترب، فقط قال بنبرة عفوية: "ستعودين، أليس كذلك؟"

ركعت إليسيا أمامه، وضعت يدها على رأسه: "سأعود... إذا بقي في هذا العالم ما يستحق العودة".

ثم نهضت، ووقفت قرب كايلان الذي كان يشدّ لجام حصانه. نظر إليها وقال: "آخر فرصة لتغيير رأيك".

قالت: "هذا ليس طريقًا أُختار... بل طريق *اختارني*".

ركبا خيولهما، واتجها نحو الممر المعتم. خطوات الحصانين صارت أبطأ، كأنهما يشعران بثقل الهواء.

وقبل أن يبتعدا تمامًا، صرخ الكهل الأعمى من الخلف: "إن تحدث إليكما حجر... فاستمعا له. وإن صمت... فاسألاه عن اسمه".

تبادلت إليسيا وكايلان نظرة قصيرة.

ثم دخلا بين الأشجار.

الطريق إلى الدير...

لم يكن الممر سوى درب ضيق بالكاد يتّسع لحصانين، محاط بأشجار شوكية ملتفة، كأنها لا تحمي الدير... بل تحجزه عن العالم.

كلما توغّلا، خفّت الأصوات، حتى الريح بدت وكأنها تتردد قبل أن تمر. السماء لم تكن مظلمة... بل خالية، كأن أحدًا محى النجوم من فوق رؤوسهم.

همس كايلان: "المكان هنا... لا يتنفّس".

أجابت إليسيا بنبرة منخفضة: "كأننا ندخل ذاكرة، لا مكان".

بعد مسافة طويلة، وصلا إلى ساحة مستديرة تحيط بها تماثيل متآكلة، نصفها مكسور، ونصفها الآخر مطموس الملامح.

وفي نهاية الساحة... كان الدير.

بناء حجري هائل، مغطى بالطحلب والكروم الجافة، بلا نوافذ تقريبًا، وباب خشبي قديم، فوقه نقوش شبه ممحية.

تقدّمت إليسيا، رفعت يدها ولمست النقش.

"النور ليس في العين، بل في الدم".

قرأ كايلان الجملة بصوت مسموع، ثم قال: "ما هذا المكان بحق السماء؟"

دفع الباب ببطء، فأصدر صريرًا طويلًا كأن أحدهم كان يمنعه من الانفتاح.

الداخل... هدوء كثيف، جدران عالية، وشموع لا تذوب مضاءة على أطراف الممر. بدا كأنها لم تُطفأ منذ قرون.

ثم خرج صوت من الظلال : **" لم نتوقّع أن تأتي... لكن الكتاب يعرف من كُتب له".**

التفتا — راهب عجوز يقف عند أسفل درج حلزوني.

وجهه لا يُقرأ، وعيناه لا تركزان عليهما، بل كأنهما تنظران إلى ما وراء الزمن.

قالت إليسيا: "جئنا نبحث عن إجابة"...

قاطعها الراهب: "ومن قال إنكم ستفهمونها؟"

ثم استدار وقال : **" اتبعاني... الكتاب لا يفتح إلا لمن ناداه".**

نظر كايلان إلى إليسيا، ثم تبعاه بصمت.

كان الوقت داخله لا يُقاس. كل خطوة كأنها تسحب من القلب عامًا.

في أعلى الدرج، عند حجرة صغيرة بلا نوافذ، وقف الراهب جانبًا، وأشار إلى منضدة حجرية.

فوقها كتاب ضخم، جلده من مادة لا تُشبه أي جلد، وغلافه منقوش عليه شكل عرشٍ مشقوق، تنبع منه أغصان سوداء، وتحيط به نجمة مقلوبة.

اقتربت إليسيا ببطء.

لم تفتحه.

بل سألته بصوت لا تعرف كيف خرج منها: **" هل هذا... هو؟"**

قال الراهب:
"العرش الذي لا يرثه النور... يُكتب كل جيل بدمٍ جديد. والكتاب لا يقرأ الكلمات... بل القربان".

قال كايلان وهو يحدّق في غلافه: "دم؟"

أومأ الراهب: "ليس أي دم. بل دم الوريث... أو من نجا من طقوسه".

نظرت إليسيا إلى كايلان، ثم إلى راحة يدها.

قالت : **" الكتاب ناداني".**

فتحته.

كانت الصفحات فارغة... لا كتابة، فقط ملمس غريب كأن الورق حيّ.

ثم لاحظت نقشًا صغيرًا جدًا على الحافة السفلية للغلاف الداخلي.

لا كلمات... فقط **رمز دائري، تحيط به قطرات، وفي المركز شفرة.**

تمتمت: "ما هذا؟"

مرّ إصبعها على الرمز... وفجأة، شعرت بوخزة. شفرة دقيقة جدًّا كانت مدمجة في الورق نفسه. جرح صغير... قطرة دم سقطت على الصفحة.

في اللحظة التي لامس فيها الدم الورق...

اشتعلت الحروف.

ظهرت فجأة، بوهج أحمر خافت، كأن الكتاب لم يُكتب بالحبر، بل بذكريات الذبيحة.

الصفحة الأولى أضاءت:

"لكل ظلّ، مفتاح من الجسد".

"ولكل ميراث، ختم لا يُفتح إلا بعهد الدم".

شهقت إليسيا.

تمتمت:
"كان يحتاج دمًا... ليفتح".

ثم أكملت القراءة

"لا أحد يقرأ هذا الكتاب... إلا من حمل في عروقه سلالة المذبحة".

ظهرت خريطة قديمة، لا تشبه الخرائط التي تعرفها. القارات موزعة بشكل مختلف، والأنهار تسير بعكس ما هو مألوف، وكأنها كانت مرسومة من ذاكرة العالم قبل أن يضبط البشر شكله.

تحت الخريطة، سطور بلغة منقوشة في العظم، لا تُقرأ... بل تُحس.

مدّت إليسيا أصابعها على الحروف، وما إن لامستها حتى ارتج الجدار خلفها، وتحوّل الحبر إلى صورة متحرّكة، كأن الكتاب بدأ **يروي**.

"حين سقط الظلام على الممالك السبع، ولم يبقَ من النار سوى رمادها، ظهر الأخوان"...

"نوفار" و "إلرياس."

الأول كان قائدًا شجاعًا، حلم بالإمبراطورية.

والثاني... كان صاحب البصيرة.

لكن لكي تُبنى الإمبراطورية، كان لا بدّ من "الكسر الأول."

ليس كسراً في الجدران، بل في الدم.

قال لهم الكاهن الأعظم آنذاك: "لا يمكن للنور أن يسود... حتى تُفتح أبواب القوة. لكن هذه الأبواب لا تفتح بالمفاتيح... بل بخمس قرابين، خمس شروط، لا يستوفيها إلا الدماء الملكيّة نفسها".

"أخيرًا... الوريثة نزفت".

ارتعشت الشموع، وارتدّ الهواء إلى الجدران. كايلان وضع يده على سيفه، لكن الراهب قال دون أن يلتفت:"إنه لا يهاجم... إنه يتذكّر".

فتح الكتاب صفحاته بنفسه.

وظهرت الكلمات... لا مكتوبة، بل **منحوتة من ضوء وظلّ** .وكل كلمة تنطق بنفسها.

"لم تُولد الإمبراطورية من فكرة. بل من دم".

"كي يحكم الأول، عليه أن يفقد الثاني".

"هكذا بدأ العرش: لا بخشب، ولا حديد... بل بندبة".

صفحة أخرى تُفتح... صور رمزية تظهر:

"شمس تنطفئ، قمر يُقطع، طفل يُسحب من ظلّه، وتاج ينبت من قبر" .

"لم يكن القربان كافيًا. كان لا بد أن تُستوفى الشروط الخمسة".

"إن لم تُستوفَ الخمسة... لا يُفتح العرش".

تم بدأ في سرد الشروط

"لم يكن تاج الإمبراطورية ليُثبت فوق الرأس، لو لم يسقط أولًا فوق جبهة طفلٍ لم يُمنح خيارًا.

ولكي يُخلق العرش، وُضعت طقوس... لا تعرفها الكتب، بل تحفظها الدماء القديمة.

طقوس لا تُفتح إلا حين يكتمل النسيان، ويُسلَّم الأخ إلى الظل".

"قيل إن أولهم ضاع بين السجلات، لأنه لم يُذكر بعد موته".

"قُطِع اسمه من الشجرة، لا يندبه شاعر، ولا يُنقش على جدار".

"فإن لم يُمحَ اسمه، لا يُولد النور".

"وقيل إن دمه لم يُسفك في ساحة، بل أمام مرآة".
"لم يُجبر.. بل وقف، ومدّ يده، لأنه عرف أن الإمبراطورية لا تُبنى بمنطق الأحياء".
"فإن لم يُراق دم باختيار، لا يُكمل التاج نبضه".

"وقيل إن جسده احترق في لهيب لا دخان له، نار لا يراها إلا من يعرف أنها تلتهم الذكرى".
"فإن بقي دخان.. بقي أثر، وإن بقي الأثر.. بطل السحر".

"وقيل إن من شهد الطقس لم يكن يملك عينيه، بل قلبًا رأى ما لا يُقال".
"فلن يُقبل القربان إن لم يُشاهد.. من لا يراه".

"وقيل أخيرًا.. إن الرواية تغيّرت بعد الطقس".
"أن يُقال للناس إنه مات مريضًا، أو سقط من فوق جبل، أو اختفى في نهر".
"فإن عُرف السبب الحقيقي، لن تقبل الأرض العرش".

ثم توقف الصوت، وتنفّس الكتاب كأن فيه حياة:

"وكلما سُئلت الإمبراطورية عن بدايتها.. أجابت بأسماء الملوك.
لكنها لا تنطق أبدًا باسم الأخ الأول".
"ذلك الذي لم يُتوَّج.. كي يُتوَّج سواه".

أغلقت الصفحة وحدها، وعاد الصمت.

الراهب اقترب، ثم قال: "الكتاب تحدّث.. لكنه لم يُقسم" .

بعد صمت الراهب وخروجه، بقيت إليسيا تحدّق في الكتاب فترة، ثم قالت : **"كايلان.. هذا المكان يخفي أكثر مما يُظهر. لا أريد الخروج فقط بإجابات نظريّة".**

كايلان نظر حوله ثم قال : **" الرهبان لا يحتفظون بالكتب فقط.. بل بعظام من كتبوا".**

وقبل أن تُكمل إليسيا الحديث، لاحظ شيئًا غير معتاد في الجدار الخلفي للغرفة.

كان نقشًا دائريًا باهتًا على الحجارة، يكاد يُمحى، لكنه لا يشبه باقي النقوش الدينية أو الزخارف. اقترب منه كايلان، ومسح الغبار عنه.

"درع مقلوب... وسيف مخفي خلفه. هذا ليس رمزًا دينيًا".

ضغط بيده على مركز النقش.

الجدار ارتجف.

وببطء.. انشقّ عن مدخل ضيّق، كأنه فُتح لأول مرة منذ قرون. هواء بارد، كأنه خرج من رئة ميّتة، اندفع منه.

قالت إليسيا: **" إن كان الكتاب يتكلّم.. فربما الموتى أيضًا لم يصمتوا".**

أشعل كايلان شمعة قديمة، ودخلا النفق.

الهواء يزداد برودة. الرطوبة تعلّق في الأنفاس. كان الممر ينزل تدريجيًا، حتى انتهى إلى **قاعة دائرية تحت الأرض**، فيها توابيت حجرية محكمة الإغلاق، وبعضها محطم نصفه كأن أحدًا خرج منه.. أو أُخرج.

على الجدران.. كتابات منقوشة بلغة قديمة. إليسيا توقفت أمام واحدة منها، وتمتمت : **" أسماؤهم محيت... حتى لا يُدعوهم أحد".**

وفي وسط القاعة، تمثال ضخم لرجل بلا وجه، يحمل بين يديه **صندوقًا حجريًا** مغلقًا بسلاسل. نُقشت حوله جملة:

"لا تفتحني إلا حين يتكلم الدم ثلاث مرات".

قال كايلان : **" هذا تحذير".**

أجابت إليسيا : **" أو وعد".**

ثم.. لاحظت شيئًا.

أحد التوابيت كان عليه نفس **الشعار الذي كان على الكتاب** :عرش مشقوق، وأغصان سوداء.

اقتربت. راحة يدها مرت على الحجر.. فرأت لمحة:

وميض نار. صرخات. طفل يُنتزع من يد أخيه.
ورجال في عباءات سوداء.. يسلّمون المفتاح لشخص لا يُرى وجهه.

ارتجفت.

ثم ابتعدت، وقالت: "كايلان.. هذا المكان شهد البداية".

"أيّ بداية؟"

وقفت إليسيا أمام التمثال الحجري، تتأمّل الصندوق المقيّد بالسلاسل. كلما قرأت الجملة المنقوشة حوله

"لا تفتحني إلا حين يتكلم الدم ثلاث مرات"

أحست كأن الكلمات تخاطبها شخصيًا، لا بالعقل... بل بالعظم.

قال كايلان من خلفها: "تكلم الدم مرة... حين لامستِ الكتاب. ومرتين... حين انفتح الباب الحجري". ثم أضاف: "لكن الثالثة؟"

لم تجب. بل سارت نحو وسط القاعة، حيث علامات دائرية على الأرض، حُفرت حول التمثال. نقوش تتقاطع في نقاط غامضة... كأنها ترسم مسار طقس لم يُؤدَّ منذ قرون.

وقفت إليسيا في المركز، وأغمضت عينيها.

لم تكن تصلي.

بل كانت... تستدعي.

حين اكتملت الدائرة تحت قدميها، لم تعد ترى كايلان.
لم تعد ترى الدير.

كل شيء حولها انزلق كما لو أنّ الجدران ذابت في السواد، والنور تراجع حتى من عينيها.

كانت واقفة في مكان لا يحتوي على أرض أو سقف، فقط فضاء رمادي لا لون له... كأنّها دخلت حلمًا بلا جسد.

ثم... سمعَت الهمسات.

همسات لا تأتي من حولها، بل من داخلها. كأن الدم نفسه يتحدث.

"مرحبًا بكِ، وريثة العرش المشقوق"...

استدارت — لكن لا وجوه، لا ظلال... فقط أصوات.

"هل تعتقدين أنكِ وحدكِ نُزفتِ؟"

"نحن الذين فُقِدنا... لا نُذكر، لا يُحزن علينا"...

بدأت تتجسد حولها أشباح من نور خافت. رجال ونساء... وأطفال.

كلهم يحملون نظرة واحدة: نظرة من ذُبح كي يعيش غيره.

همست إليسيا، بصوت مبحوح: "من أنتم؟"

قال أحدهم، صوته كان أهدأ من الريح، لكنه اخترق عظمها :

"نحن من استوفت الطقوس شروطها بدمائنا. نحن الكسر الأول، والظلال الخمسة".

"عالقون هنا... في ألا-مكان. بين طقوس لم تُكتمل، وتاريخ لم يُكتب".

ثم ظهر رجل في الثلاثين من عمره، عيناه من ذات لون عينيها، وصوته كأنّه يحمل صوتًا هي تعرفه.

قال:
"إليسيا"...

شهقت.

"أبي؟"!

اقترب منها بخطى لا تلامس الأرض، وقال:
"ظننتِ أنهم أخفوني في معركة؟ لا يا صغيرتي. لقد كنتُ... القربان".
"ضحّيتُ كي يحمل من سيأتي بعدي القوة، حتى لو لم يعرف اسمي".

انهارت إليسيا على ركبتيها، ودموعها لا تنزل بل تختنق في الهواء.

قال الأب: "لم نُمت بالكامل. نحن عالقون لأن الطقس لم يُغلق. لأن أحدًا ما... ما زال يبحث عن الحقيقة".

أحد الأرواح تمتم: "لا تبحثي عن الخلاص... بل عن التتمة".

آخر قال: "الطقس الثاني هو الاعتراف... لا بالسلطة، بل بالثمن".

اقتربت يد الأب من خدها، لكنه لم يلمسها. قال:
"إن خرجتِ من هنا، لا تعودي دون أن تعرفي: هل تستحق الإمبراطورية هذا الثمن؟"

ثم بدأ كل شيء يتلاشى.

قبل أن تغادر، سمعت صوتًا أخيرًا، لا تعرف مصدره : **"حين تنتهي الطقوس... يبدأ السقوط".**

كل شيء بدأ ينهار ببطء... الأصوات تبهت، الوجوه تتشقق كأنها تُمحى، و"ألّا مكان" صار يبتلع ملامح نفسه.

إليسيا وقفت وحيدة في هذا الرماد الزمني.

لا أبواب. لا اتجاهات.

فقط قلبها ينبض — كأنّه آخر ما يربطها بالعالم الحقيقي.

قالت بصوت مرتجف:
"كايلان... إن كنت تسمعني... أيها العالم... إن كنت حقيقيًا"...

صدى صوتها لا يعود. الصدى نفسه ضائع.

ثم — تذكرت.

الحجر الأبيض. الطاهر.

أخرجته من عباءتها. ما زال باردًا، كأنّه لم ينتمِ يومًا لهذا العالم.

نظرت إليه، وهمست:
"ميرنا قالت إن من يدخل الدير... يحتاج شيئًا طاهرًا ليعود. فهل تكفيك براءة واحدة؟"

ضغطت الحجر على راحة يدها، وسقطت دمعة على سطحه.

اهتزّ الهواء.

ثم، من تحت قدميها، بدأ ينبت خيط رفيع من الضوء. لا يُنير شيئًا... لكنه يشق الظلام.

مدّت يدها. لا أحد أمسك بها.

لكنها مشت.

كل خطوة كانت ثقيلة كأنها تجرّ عالمًا معها، لكن كل خطوة تخلق ضوءًا جديدًا.

ثم، من اللاشيء، ظهر صدى صوت أبيها، ليس ككلام، بل كنبض:

"حين تمشين، امنحي لكل قطرة دمّ طريقًا للعودة".

أغمضت عينيها.

"أنا إليسيا... لا ظلًا. لا طقسًا. لا سلاحًا".

فتحت عينيها.

ووجدت نفسها تسقط.

لكن هذه المرة... كان هناك أرض تنتظرها.

شهقت إليسيا وهي تسقط على ركبتيها فوق أرض الدير الباردة. يدها لا تزال تقبض على الحجر، لكنه صار مشقوقًا.

كايلان اندفع نحوها، صوته مشوش، يتردد عبر الفراغ:

"إليسيا! هل كنتِ...؟"

لم تجب فورًا.

نظرت إليه، بعينين تحملان من التعب ما لا تحمله الحروب.

وقالت:

"رأيتهم... من نسيناهم".

كان الهواء في غرفة الكتاب لا يزال راكدًا، والشموع الموزعة على الجدران ترجف كأنها خائفة.

كايلان ساعد إليسيا على النهوض، عيناه لا تصدقان أنها عادت فعلاً.

لكن قبل أن تنطق بكلمة...

انفتح الباب الخشبي بصوتٍ مزمجر.

دخل الراهب، عباءته تتبع خطواته الثقيلة، وعيناه تتسعان حين وقعتا على وجه إليسيا، وعلى الحجر المشقوق بين يديها.

توقف فجأة، همس، كمن رأى شبحًا:

"هذا.. هذا غير ممكن".

كايلان وضع يده على مقبض سيفه، وقال: "ما غير الممكن؟ أين كنت؟"

لم يرد الراهب على كايلان، بل خطى نحو إليسيا، نظر إلى عينيها نظرة طويلة، ثم قال ببطء: "أنتِ دخلتِ . . . ولم تذوبي؟"

قالت إليسيا بصوت مبحوح: "وجدتهم. الذين لم يُذكروا. وجدت والدي".

ارتجف الراهب خطوة للوراء، ثم أنزل عينيه:

"لا. . لا يجب أن يكون هذا حقيقيًا. الكتاب لا يفتح تلك الأبواب إلا.. في الأحلام".

صرخت إليسيا: "أكان حلمًا؟ أكان والدي خيالاً؟ أكانت أرواحهم كذبة؟"!

قال الراهب بصوت هادئ، وكأنه يتمسّك بعقيدة:
"كل ما رأيتِه كان انعكاسًا. . أسطورة محفورة في اللاوعي الجماعي. لا أحد يستطيع أن يشهد على بداية الإمبراطورية. لا أحد عاش ليحكيها".

قاطعه كايلان: "لكن الكتاب تحدّث".

رفع الراهب يده، وأشار إلى الحروف التي بدأت تتلاشى تدريجيًا من على صفحات الكتاب.

"الكتاب لا يتكلّم... إلا بلغة من يريد أن يؤمن. ما رأيتُموه كان **نسخة من الحقيقة** ...لا الحقيقة نفسها. ما نُقل عبر الأجيال، محى الزمن ملامحه. لم يبقَ سوى القصة، والأسطورة... والأسطورة لا تُحاسَب، ولا تُصدَّق كُليًا".

إليسيا تقدّمت نحوه خطوة، وقالت بصوت لا يخلو من الألم:

"ولكني نزفت... دخلت في الظل... وعدت".

قال الراهب بنبرة جازمة: "وهذا لا ينفي أنها قد تكون أوهامًا نُسجت من عقلك... أو من إرادة الكتاب نفسه. كم من المرات روى الكتاب قصصًا مختلفة لأشخاص مختلفين؟ هل من رآهم قبلك عاد؟"

ساد الصمت.

ثم قال الراهب، كمن يُنذر:

"إياكِ أن تبني قرارك على ما قيل... بل على ما يكون".

"الإمبراطورية لن تسقط بأسطورة. ولن تنهض بها أيضًا".

ثم اقترب منها، وبصوت منخفض جدًا، كأنّه لا يريد أن يسمعه أحد:

"وإن كان ما رأيتِه حقيقيًا... فليتكِ لم تريه".

استدار وخرج، وترك خلفه الشموع تنطفئ واحدة تلو الأخرى.

هدأ الليل فوق جدران الدير، لكن داخله لم يكن هناك هدوء.
بعد مواجهة الراهب، لم تذق إليسيا طعم النوم، رغم تعب الجسد والروح. كانت العبارات التي نُحتت من الضوء لا تزال تُردَّد في ذهنها، والوجوه التي رأتها في "اللا-مكان" ترفض أن تُنسى.

أما كايلان، فجلس وحيدًا في إحدى الزوايا، يحدّق في صفحة ممزقة من كتاب الطقوس الذي وجده مخبأً خلف تمثال قديم.
كان هناك تمزيق متعمد، لا يشبه التلف العادي للزمن. وكأن أحدهم أراد محو ما كُتب، لا نسيانه فقط.

همس لنفسه:
"هذا الراهب... يعرف أكثر مما يقول".

تحرّك كايلان بهدوء، تسلّل إلى غرفة الأرشيف العتيقة. كانت مقفلة، لكنه استخدم شفرة صغيرة ليكسر القفل الصدئ.
تصفّح السجلات بحذر. بعضها كتب بخط يدوي شديد القِدم، وبعضها كان ناقصًا، أو مشوّهًا بالحبر أو الحرق.

وبينما يقلب صفحات سجل قديم مزيّن بشعار شجرة ميتة، توقّف عند توقيع في الأسفل.
لم يكن الاسم واضحًا... لكن الخط كان مألوفًا.
تذكّره. كان يشبه خط الراهب الأكبر.

تمتم كايلان:
"هذا التوقيع يعود لقرنٍ مضى... مستحيل".

في تلك اللحظة، سمع كايلان صوت خرير ماء... لكنه لم يكن هناك نهر.
رفع رأسه، وحدّق في الجدار.

كان هناك نقش خافت، بالكاد يُرى:
"الذي يدوّن الطقس... لا يموت".

في مكانٍ آخر من الدير، كانت إليسيا مستلقية، تتقلّب، غير قادرة على النوم.

ثم جاءها الصوت.

ليس صوتًا خارجيًا، بل شيء ينبض داخلها، كأن دمها صار له لسان.

"الدم تكلّم ثلاثًا... لكن من سيُنصت في الرابعة؟"

فتحت عينيها. تنفّست بعمق، وسمعت همهمة... همهمة لا يفترض أن تكون موجودة.
نهضت وتبعت الصوت، لا تدري إن كانت تمشي في الواقع، أم داخل حلم يقظتها.

رأت نفسها في ممر لم يسبق لها أن سلكته، ينتهي إلى باب حجري بلا مقبض.
لكن وسطه... دائرة سوداء، ناعمة كالمرايا، لكنها لا تعكس شيئًا.

أرادت أن تلمسها، لكن أصابعها توقفت.

شعرت وكأن شيئًا بداخلها يتمزق بين الفضول والخوف.
ثم... انعكست في المرآة صورة لم تكن لها، بل لامرأة أخرى... تشبهها. نفس العيون. نفس الملامح.
لكنها ترتدي ثوبًا إمبراطوريًا، وتجلس على عرش من عظام محترقة.

قال الصوت مجددًا:

"ما لا تراه الكتب... تراه الدماء".

استفاقت إليسيا، جالسة تتنفس بلهفة، وكأنها خرجت للتو من الماء.
كانت في غرفتها. الباب مفتوح. الشمعة انطفأت.

كايلان دخل فجأة، وجهه مشدود.

قال لها:
"إليسيا... الراهب كذب. لدينا دليل".

نظرت إليه، يداها لا تزال ترتجف، وقالت:
"وأنا... رأيت وجهي في عرشٍ لا أريده".

كايلان مدّ إليها الورقة التي وجدها، كانت مهترئة لكن الكتابة عليها واضحة:

"ليس كل من عبر الطقوس نجا، وليس كل من نجا بقي بشريًا".

قال لها بصوت خافت:
"الراهب كتب هذا... لكن لا أحد حي اليوم كان ليعرف بهذه النسخة من الطقوس".

حدّقت إليسيا في العبارة، ثم همست:
"كايلان... رأيت مرآة في الحلم. سوداء. لا تعكس شيئًا... ثم عكست امرأة تشبهني، لكن بشيء في عينيها... شيء لا أنتمي له".

قال بحدة:
"المرآة؟ ... رأيت شيئًا شبيهًا في المخطوطات، تُدعى *عين الدائرة* .يقال إنها لا تفتح إلا أمام من انكسرت هويته".

تبادلا النظرات، ثم قالت إليسيا ببطء:
"إنها في الممر القديم تحت الدير... المكان الذي يقود إلى القبو الحجري".

كايلان وقف فورًا.

"إذا كانت هذه المرآة حقيقية، فقد تقودنا إلى ما يُخفيه هذا الدير... وما يُخفيه دمي".

في تلك الليلة، كان الصمت يخيم على أروقة الدير كوشاح ثقيل من الرماد. القمر نصف غائب، يطل بخجل من بين السحب، يراقب خطواتهما الحذرة. إليسيا كانت تسبق كايلان بخطوة، عيناها مشدوهتان كأنها تتبع أثرًا لا يُرى.

وصلا إلى الممر القديم، ذاك الذي هُجر منذ عقود، حيث تتقاطع الجدران الحجرية بأنفاس الماضي. هناك، عند طرفه الأقصى، كانت المرآة تنتظرهما. مستطيلة، بإطار من الحديد الأسود، لا تعكس سوى الظلال – كأنها ترفض الاعتراف بالعالم الخارجي.

قال كايلان هامسًا:
"هل تشعرين بشيء؟"

لكن إليسيا لم تجبه. تقدّمت، رافعة يدها نحو الزجاج البارد. في اللحظة التي لامسته، ارتعش السطح كبحيرة ألقي فيها حجر، ودوّى صوت خافت... ليس صوتًا بشريًا، بل كأن الجدران ذاتها تنفست:

"المرآة لا تفتح لمن يرى... بل لمن يتذكّر".

تراجعت إليسيا خطوة، ثم أغلقت عينيها. لم تكن تعرف ما الذي تذكّره، لكنه أتاها فجأة: شعور بالحنين، برعب قديم، بصوتٍ كان يغني لها وهي طفلة، أغنية بلا كلمات.

فجأة، انعكس الضوء من سطح المرآة، رغم أن لا ضوء في المكان. ظهرت رؤى داخل الزجاج: غرفة صغيرة ذات نوافذ عالية، شجرة محترقة، امرأة بلا وجه... وأخيرًا، باب.

همست إليسيا:
"كايلان... أترى ما أرى؟"

نظر، ثم شهق بصوت مكتوم. في الزجاج، كانت وجوههم تنعكس... لكنهم لم يكونوا هم. انعكاس إليسيا كان يحمل عينين ذهبيتين، وشعراً أطول مما هو عليه. وكايلان... بدا كأخٍ ضائع، أو ظلٍ تائه عن جسده.

ثم انفتح الزجاج – لا كنافذة، بل كستار من الدخان. الهواء تغيّر، رائحته صارت كثيفة، تشبه بخور الطقوس القديمة.

سحبته إليسيا قبل أن يتردّد، ودخلا معًا.

لكن الداخل لم يكن مكانًا.

كان صدى حواس. كانوا واقفين على أرض من زجاج يتنفس، تحت سماء مقلوبة، حيث الأفكار تُرى كأشكال طيفية، تتراقص وتبتعد. كلمات لم تُقل بعد تهمس في الآذان، وأطياف لذكريات لم تحدث تمرّ بهم كريح خفيفة.

قالت إليسيا بصوت أقرب إلى نفسها:
"إنه انعكاسنا من الداخل... الحقيقة التي نخاف النظر إليها".

ثم بدأت الرؤى تتشكل من حولهم: والدها، لكنه لا ينظر إليها... ألدريك واقف عند مذبح، عيناه تمتلئان بالندم... أدريان، مغمور بالضوء، يمد يده نحوها، ثم يختفي في ومضة.

قبل أن تدرك ما يحدث، ارتجّت الأرض الزجاجية تحت قدميها، وصرخت الأرواح من كل جانب:

"عودي قبل أن تُصبح رؤياك قيدًا".

أمسك كايلان بيدها.
"المرآة تغلق، إليسيا"!

صرخت بدورها، لا تريد المغادرة... لكن الدخان عاد، والتشقق بدأ من الزوايا.

قفزا خارج الزجاج في اللحظة الأخيرة.

وعاد الصمت.

لكن شيئًا تغيّر. في يدها، بقيت قطعة صغيرة من الزجاج... تنبض.

حين عادا إلى الممر الحجري، كانت جدرانه كما هي، لكن الهواء لم يكن ذاته. بدا كأنهما عبرا موسمًا كاملاً في لحظة. إليسيا نظرت إلى قطعة الزجاج التي بقيت في يدها، صغيرة ومثلثة، لكن في عمقها وميض لا يتوقّف، كعينٍ تراقبها من الداخل.

كايلان قال متوترًا:
"ما كان ذلك؟ لم يكن حلمًا... ولم يكن ذكرى".

هزّت رأسها ببطء.
"كان نحن... لكن في بعدٍ آخر، أعمق. كأن المرآة لم تكن تعكس وجوهنا، بل نوايانا".

جلسا على أحد الدرجات الحجرية، وقد أنهكهما ما حدث.

قالت، متأملة الزجاج:
"أدريان... كان هناك. رأيته يمدّ يده إليّ. لكنه اختفى قبل أن أتمكن من لمسه".

نظر كايلان إليها طويلاً، ثم سأل بصوت حذر:
"أتعنين... أنه حي؟"

"لا أعرف." تمتمت. "ربما ما رأيته كان بقايا من وجوده... أو أثره. أو ربما"...

صمتت، ثم حدّقت فيه بعينين دامعتين:
"ربما نحن من يحمل أشلاءه فينا".

في الأيام التالية، تغير شيء في إليسيا.

كلما لمست الزجاج، رأت ومضات: فناء الدير كما كان قبل الحريق، صوت صراخ مكتوم خلف الجدران، رهبان يسيرون في طقس قديم لا يُفهم... وفي كل مرة، شعرت أن هناك خيطًا يربط كل شيء، خيطًا يشدّها نحو مركز لا تعرفه بعد.

وفي إحدى الليالي، بينما كانت وحدها في غرفتها، سمعت صوتًا ناعمًا يخرج من قطعة الزجاج التي وضعتها تحت وسادتها:

"الطقس الثاني لم يكتمل... لا تُغلقي العين قبل أن ترى".

قفز قلبها. حملت القطعة، وعندها فقط لاحظت شيئًا جديدًا: في سطحها تشكّلت دائرة صغيرة، محفورة داخل الزجاج، تشبه ختمًا قديمًا. وعند لمسه، انبعثت منه حرارة خفيفة... وصوت خافت أشبه بأنفاس مراه.

في الصباح التالي، قررت العودة إلى المكتبة السرّية أسفل الدير. لم تخبر أحدًا، حتى كايلان، الذي صار أكثر تحفظًا بعد الحادثة.

بين الرفوف المظلمة، وجدت مخطوطة لم تكن هناك من قبل، كأنها وُضعت في طريقها عمدًا. جلدها غامق كالفحم، وعليها نفس الرمز المنحوت في قطعة الزجاج.

عنوانها:

"كتاب العين الثالثة – طقوس الكشف والمرآة".

ترددت لحظة، ثم فتحته.

في الصفحة الأولى، بخط غريب يكاد يختفي من شدّة قدمه، كُتب:

"لكل مرآة باب، ولكل باب قلب... إن فُتح دون حكمة، ابتلع الحالم".

كانت هناك كتب مصطفّة.

لكن شيئًا فيها شدّ انتباهها فورًا: لم تكن معنونة بموضوعات... بل بأسماء.

اسم فوق كل غلاف.

الأول : **"كاليسترا، أول من خاطب النور".**

الثاني :**" فيرون، حامل النار الصامتة".**

الثالث : **"إيلوما، التي نسيت وجهها".**

الرابع : **"أغنار، الذي أغلق البوابة".**

الخامس : **"ميراليس، أمّ الأكفان".**

ثم وقفت فجأة أمام كتاب لم تجرؤ على لمسه... فقد كان اسمه محفورًا داخلها قبل أن تقرأه:

"ألدريك".

لا لقب، لا وصف. فقط اسمه. عارٍ كجُرح.

شهقت إليسيا، يدها ترتجف وهي تقترب. ثم تابعت القراءة.
"في اليوم الثالث من دورة المطر، وضعت الملكة إلينورا توأمين: أوريان وألدريك. وُلد أوريان أولًا، قوي البنية، هادئ الصراخ... ثم تبعه ألدريك، ضعيف الجسد، لكنه فتح عينيه قبل أن يُقطع الحبل عن أخيه".

"قالت القابلة: هذا الطفل لا يحتاج لبكاء... هو يُدرك".

شهقت إليسيا. إذًا، هما **توأمان** ...والدها وعمّها، وُلدا في اليوم ذاته، من الرحم ذاته. لكن مصيريهما انفصلا منذ اللحظة الأولى.

تابعت الصفحات، وظهر عنوان جديد:

"تفوق غير متوقع".

"كبر الولدان معًا، لكن ألدريك سبق أخاه دومًا. كان يتحدث في عمر لم ينطق فيه أوريان. يتعلّم الحروف حين لم يعرف شقيقه شكلها. وكان المعلّمون يقولون: لو كُتبت السلالة من جديد، لاخترنا ألدريك".

"لكن القانون صارم: الوريث هو البكر".

"وحين بدأا التدريب على فنون الحكم، كان أوريان نبيلًا، لكنه بطيء. وألدريك؟ كان يرى في الخرائط ما لا يراه أحد. يتنبأ بالحروب، ويحفظ أسماء الحكماء، ويقرأ في كتب لم يُسمح له بها بعد".

"كان فلادور، والدهما، يراقب ذلك بصمت. قال مرة: 'أخشى أن النور اختار خطًا آخر'...

لكن ما يُخشى... لا يُقال".

أحسّت إليسيا بغصة في صدرها. عمّها، الذي طُمست صورته من التاريخ، لم يكن خائنًا... بل كان **الأذكى، الأقوى، الأكثر وعيًا.**

ومع ذلك، لم يكن هو الوريث.

همست:
"لقد كانوا توأمين... لكن ألدريك ظلّ دائمًا هو 'الآخر'... حتى حين تفوّق".

وقلبت الصفحة.

"عندما بلغ التوأمان السادسة عشرة، منح فلادور سيفًا من الفضة لأوريان، رمزًا للوريث، ومنح ألدريك كتابًا قديمًا، مغلفًا بالسلاسل، وقال له: 'لك ما لا يقدر عليه السيف'.

وكانت هذه بداية الانقسام".

سقطت عيناها على آخر سطر في الصفحة:

"ربما لم يكن الطقس قَدَرًا فقط... بل نتيجة سنوات من الصمت والظلال".

رفعت رأسها ببطء، وأدركت شيئًا جديدًا.

ألدريك لم يُسحق فقط بالقانون... بل بالحبّ الذي لم يُمنح.

رجلٌ كان يمكن أن يكون ملكًا... فصار قربانًا.

أو... صارت روحه، حتى بعد نجاته، معلّقة في لعنته.

كانت إليسيا لا تزال تقلب الصفحات، تبحث عن شيء يشرح... يربط... يُنقذ.

حتى وجدت عنوانًا كتب بخط مائل، مختلف قليلًا عن باقي النصوص، كأن كاتبه كتبه مترددًا، أو خائفًا:

"ما لم يُكتب في السجلات".

رفعت حاجبيها، قلبها يخفق بشعورٍ لا تفسير له.

"حين دنت الساعة، ولم يبقَ سوى طقسٌ واحد لكبح الفراغ، اجتمع التوأمان للمرة الأخيرة وحدهما في الحجرة المقدسة. لا كملكٍ ومستشار، بل كأخوين وُلِدَا من نفس الدم".

"وكان الاتفاق أن يُضحَّى بألدريك، لأنه لا يحمل التاج، ولا وريثًا له، ولا حاجة له بعد ذلك".

"لكن أوريان، الذي رأى أخاه يكبره في كل شيء... في الفكر، في البصيرة، في القلق الذي لا يُقال... لم يكن قادرًا على القبول".

توقفت إليسيا، أنفاسها معلّقة، ويدها تشدّ على حواف الصفحة.

"وفي ليلة الطقس، حين تجهز الكهنة للمراسم، أُغمي على ألدريك قبل المذبح بدقائق، ولم يعلم أحد كيف".

"ثم تقدّم أوريان وحده، صامتًا، ووقف مكانه".

"وحين سألوه: 'أين القربان؟' قال: 'أنا ... القربان. ولن ينجو العرش إن مات من يحمل النور دون أن يمنحه'".

"فهم الكاهن الأكبر متأخرًا ما يعنيه، لكن الوقت كان قد بدأ ... والأرواح بدأت تتحرك".

"ولم يكن الطقس المعتاد. لم تُؤخذ من جسده فقط، بل من روحه... قطعة، شُقّت لتُزرع في جسد أخيه".

"وهكذا ... عاش ألدريك".

"لكن منذ ذلك اليوم... لم ينظر في المرآة مرة أخرى".

أحسّت إليسيا وكأن الأرض تهتز من تحتها.

والدها... لم يمت فقط.

بل **أعطى روحه، حرفيًا، لألدريك** .ضحّى بنفسه **ليمنحه الحياة** ...وليس لإنقاذ الإمبراطورية فقط، بل **لأجل أخيه**.

همست، صوتها مشروخ:

"لم تكن تضحية سياسية... بل حبًا لا يُصدّق".

جلست على الأرض، والدموع تترقرق في عينيها.

"لقد اختار أن يختفي... ليبقى ألدريك".

وتذكرت ما قاله الكاهن ذات مرة:

"بعض الأرواح لا تفنى... بل تعيش في غيرها".

فهل... هل كان ألدريك من يومها يحمل روحين؟ وهل الطقس الجديد الآن يطلب الموازنة؟ الدم الجديد... ليُطفئ اختلال الدم القديم؟

هل كان وجود إليسيا بحد ذاته، **دَيْنًا لطقس لم يُكتمل**؟

رفعت رأسها. قطعة الزجاج في يدها بدأت تتوهّج، والمرآة في الجدار البعيد عكست ضوءًا لم يكن من أي شعلة.

شيء ما... بدأ يستيقظ.

أغلقت إليسيا عينيها، وثقلُ الكلمات في صدرها لا يُحتمل. تنفّسها أصبح متقطّعًا، وكل شيء بدأ يتلاشى في ضباب أسود.

سقط الكتاب من يديها... وسقط معها الوعي.

فتحت إليسيا عينيها لتجد نفسها في **غابة من رماد** .الأشجار سوداء، والسماء بلا لون. الضباب يزحف من كل الجهات. لم تكن خائفة، بل مثقلة بإحساس غريب بالحداد.

ثم سمعت **صوتًا مألوفًا... غريبًا في آنٍ معًا**.

"كنتُ أظن أنني لن أراك أبدًا، يا ابنة أوريان"...

استدارت ببطء، فرأته.

ألدريك، بملابس لا تشبه التاج، ولا العباءة.كان يرتدي سترة بسيطة، شعره منكوش، وعيناه حُمر من البكاء. بدا كأنه **شاب في أول العمر، مجروح كطفل**.

اقترب منها، لكنها لم تتراجع.

قال بصوت متهدّج:

"أظن أن الوقت تأخر كثيرًا... لتُقال الحقيقة".

قالت بصوتها المشقق:

"أخبرني... أخبرني الآن".

جلس على الأرض، ودفن وجهه بين يديه. ثم قال:

"لم يكن الأمر كما ظننتم... لم أختر الحياة، بل فرضوها عليّ".

"كان عليّ أن أُقتل... كان دوري، أنا... لكن أوريان سبقني إلى المذبح".

"لم أستطع إيقافه... لم أتحرك. كنت جبانًا".

سكت، ثم رفع وجهه، ودموعه تسيل على خديه:

"صرختُ بعد فوات الأوان... لكن كان الصوت أضعف من الطقس".

"حين فُتح الباب، رأيت دم أخي على الأرض... وسمعت صدى القسم الذي لم يُكمل... كان اسمي ما كان يُفترض أن يُقال".

اقتربت منه إليسيا، ركعت أمامه، وهمست:

"لماذا لم تخبر أحدًا؟"

قال:

"لأنني لم أعد أستحق الحياة. ارتديت التاج كمن يحمل نعشه على رأسه".

"كل ما فعلته بعد ذلك... كل حكم، كل انتصار... كان محاولة فاشلة لأكفر عن لحظة صمتي".

ثم نظر في عينيها، ودموعه لم تتوقف:

"أنا لم أقتله، إليسيا... لكني لم أُنقذه".

"وحين نظرتُ في عينيه للمرة الأخيرة... رأيت فيها غفرانًا لم أستحقه".

ساد الصمت، إلا من تنفّس الغابة الميّتة. مدت إليسيا يدها ولمسته. لم تكرهه. لم تسامحه بعد، لكن داخلها، تكسّرت صورة الوحش البارد... وبدأت ترى الإنسان.

ثم بدأت الأحلام تتكسر... والضوء يتسلل من بعيد.

وصوتٌ أخير من ألدريك:

"إن كنتِ تبحثين عن والدك... فهو لم يرحل حقًا. النور الذي تسكنينه... فيه ظله".

استفاقت إليسيا فجأة.

أنفاسها سريعة، وجسدها مبلل بالعرق، وعيناها متسعتان كأنهما رأتا الموت ثم الحياة. رفعت رأسها عن الأرض الحجرية الباردة، فوجدت نفسها لا تزال في المكتبة، بين الكتب المفتوحة والغبار الهادئ... لكن شيئًا تغيّر.

نورٌ ذهبي خافت تسلل من بين قضبان النوافذ، يتراقص على الأرض.

كانت الشمس تشرق.

شهقت ببطء، ثم نهضت على مهل، تتلمس الكتب المبعثرة حولها. حدقت في كتاب عمها الذي لا يزال مفتوحًا على صفحة تلطخت بأطراف أصابعها المرتجفة. همست لنفسها:

"لقد ضحى والدي... وعمّي لم يكن سوى شبحًا يحاول النجاة بما تبقى من روحه".

كانت الساعة تقترب من الفجر الكامل. عادت بسرعة إلى ترتيب الأوراق، أعادت الكتب إلى أماكنها، حرصت أن تُخفي آثار وجودها.

وقبل أن تغادر المكتبة، نظرت إلى المرآة التي في الزاوية.

انعكاسها لم يكن كما كان.

كان في عينيها **ثقل جديد... وإصرار**.

سارت بخطى صامتة نحو جناحها، متخفية بين الأعمدة. لا أحد رآها.

حين دخلت غرفتها، أغلقت الباب بهدوء، وأسندت ظهرها إليه. أمسكت قلادتها، وشدّت عليها بقوة.

"هذا المكان يحمل أجوبة... لكنه أيضًا يخفي جراحًا".

نظرت من نافذتها نحو الشرق، حيث الجبال لا تزال تبتلع ضوء الشمس ببطء. هناك... حيث كان **وادي الشتاء**.

"إن كان جدي فلادور لا يزال حيًا... فهو الوحيد القادر على ربط القطع المتكسّرة".

شدّت حقيبة صغيرة، أخفت فيها بعض الطعام، خريطة ممزقة، والكتاب الوحيد الذي احتفظت به: كتاب عمها.

ثم همست:

"سأرحل... قبل أن يمنعني أحد".

إليسيا تسللت نحو البهو الخلفي، تعرف أن كايلان يكون هناك في هذا الوقت... يتأمل الصمت.

ووجدته.

واقفًا وحده، يربط سيفه عند خصره، كأنما كان يشعر بأن شيئًا سيحدث.

نظرت إليه لحظة، ثم قالت بصوت منخفض، لكنه حازم:

"كايلان... سأغادر".

التفت إليها بسرعة، وعيناه تقرآن ملامحها كما لو أنها خريطة مشروخة.

"متى؟"

"الآن... قبل أن يستيقظ أحد. لا يمكنني البقاء. عرفت ما يكفي الليلة... وعليّ الذهاب إلى وادي الشتاء".

تقدم خطوة، عينيه تضيقان بقلق.

"كنت أعرف أنك لن تبقي في هذا المكان طويلًا".

نظرت إليه بامتنان، ثم تابعت:

"وجدت ما يثبت أن جدي فلادور لا يزال حيًا. و... هناك شيء أكبر يحدث، شيء يتعلّق بي، وبما حدث لأبي. لا أستطيع أن أغمض عيني بعد الآن".

كايلان حدّق بها، وفي عينيه نار لم تُطفأ منذ ليلة القبض عليهم.

"إذن لن نعود كما جئنا".

ابتسمت بخفة، رغم الثقل في صدرها:

"لا... لن نعود كما كنّا".

ثم اقتربت منه، وضعت يدها على ذراعه، وقالت بهدوء:

"استعد. نغادر قبل أن تشرق الشمس بالكامل".

في الباحة الخلفية، تحت شجرة سرو عتيقة، وقفا بصمت.

إليسيا، ترتدي عباءة رمادية داكنة تخفي ملامحها، تحمل حقيبة جلدية صغيرة مربوطة جيدًا.

أمسكت إليسيا بلجام حصانها ظل الليل، وربّتت على عنقه. همست:

"سنذهب بهدوء. لا أريد أن يراني أحد... ولا أريد أن أوقظ الذكريات التي قررت أن أتركها خلفي".

ركبت الحصان بخفة، وعيناها لا تلتفتان إلى الوراء.

كايلان اقترب بحصانه منها، قال وهو ينظر إلى الشمس:

"إذا كان ما رأيته حقيقيًا... فكل لحظة تأخير ثمنها غالٍ".

أومأت دون أن تنظر إليه.

"وادي الشتاء لن يكون كما نعرفه... لكنه يحمل الأجوبة".

صوت أقدام الحصانين على الحصى الرطب بدأ يعلو .ومع أول نبضة من أشعة الشمس على الطريق المؤدي إلى الغابة، عبر الاثنان بوابة الدير الخلفية، تلك التي لم تُفتح منذ سنوات.

كانت الطيور تغرّد كأنما تشيّعهما، والدير خلفهما بدا هادئًا كقبر قديم يحتفظ بأسراره.

لم تلتفت إليسيا مرة أخرى. لكنها شعرت به...

كأن الدير يراقبها للمرة الأخيرة...
أو كأن شيئًا فيه لم يُغادرها بعد.

كانت الأشجار تعلو فوق رأسيهما كأعمدة، تتشابك أغصانها في الأعلى حتى تحجب جزءًا من الضوء.
دخل الحصانان بخطى حذرة، وكأن الغابة نفسها تراقب من يعبرها.

كل شيء في الداخل بدا ساكنًا... أكثر مما يجب.

إليسيا تنظر حولها، تقول بهمسٍ:

"هل تسمع ذلك؟"

كايلان يبطئ حصانه، ينصت.

"لا أسمع شيئًا"...

ثم يتوقف فجأة.

"وهنا يكمن الخطر".

كانت الغابة صامتة، لا طائر، لا خشخشة أوراق، لا خفق جناح. هذا الصمت... غير طبيعي.

ثم، دون سابق إنذار، **هبت نسمة باردة**، مرّت بينهما كأنها تمر خلال الأرواح لا الأجساد.

الحصان الأسود لإليسيا **أصابه القلق**، رفع حافره وضرب الأرض بتوتر.

كايلان أمسك سيفه بخفة دون أن يخرجه:

"الهواء تغيّر... هل تشعرين؟"

إليسيا أغمضت عينيها للحظة... **ورأته**.

ومضات من ضوء أبيض – ظلال أشخاص يمرون بينهم. لم تكن أجسادًا... بل **بقايا من الذاكرة**.

سمعت همسات، كلمات غير مكتملة، أسماء تُقال وتذوب في الهواء.

ثم فجأة، وقفت شجرة في طريقهم لم تكن هناك من قبل. ملتوية كأنها غُرست منذ قرون.

إليسيا تهمس:

"ليست طبيعية... هذه الغابة تُعيد تشكيل الطريق".

كايلان يشير إلى نقش على جذع الشجرة، كُتب بلغة قديمة:

"لستما أول من يسلك هذا الطريق... لكنكما قد تكونان آخر من يعود".

تنزل إليسيا من على حصانها، تحسس النقش بأطراف أصابعها... وفجأة **تنسحب يدها إلى الوراء**، وكأنها لامست شيئًا حيًا.

في اللحظة نفسها، **ينشق الهواء** كستارة، ويظهر ممر ضيق بين الأشجار، تحيط به **أنوار زرقاء باهتة** تتحرك في بطء.

قال كايلان، صوته أخفض من الهمس:

"هل ترغبين في الدخول؟"

نظرت إليه، ثم إلى الممر، وأجابت بثقة:

"علينا أن نعبر... إن كانت الطريق تعرفنا، فلتفتح لنا أبوابها".

ثم سارت أولًا، ممسكة بلجام الحصان، وكايلان خلفها.

وما إن دخلا، حتى بدأت الأشجار تغلق خلفهما ببطء...

خطوات الحصانين تُحدث صدى خافتًا، كأن الأرض نفسها جوفاء، تخفي شيئًا تحتها.

قال كايلان وهو يحدّق في الأرض:

"هل هذه حجارة؟"

نزل من على حصانه، وركع ليلمَس الأرض. أزاح قليلًا من التربة... لتظهر **بلاطات حجرية** مغطاة بطبقة رقيقة من الزمن.

"هذا ليس ممرًا طبيعيًا... إنه مبني".

إليسيا كانت تحدق إلى الأعلى. بين أغصان الأشجار، لم يكن هناك سماء... بل **دوامات من الضوء تتحرك ببطء**، كما لو أن الممر يسير تحت سطح نهر من النجوم.

وفجأة، بدأت النقوش على الجذوع تلمع أكثر.

كلمات بلغة مجهولة أخذت تتكون أمام عينيها.

اقتربت، وقرأت بصوت خافت:

"من سلك هذا الطريق، يرى لا بعينيه، بل بروحه... ومن لم تكن له روح، تاه إلى الأبد".

همست:

"الممر حي... كأنه يشعر بنا".

ثم، على أحد الجدران الصخرية بين الشجرتين، انشق الظلام عن **لوحة محفورة**.

وجه شابٍ منقوش بدقة، يشبهها إلى حدٍّ مخيف... لكنه ليس إليسيا .عيناه مغمضتان، وتحته كُتبت عبارة:

"من هنا عبر... من أجل أن يفتح الطريق لمن بعده".

كايلان ينظر إليها:

"يشبه والدك... أوريان؟"

هزّت إليسيا رأسها، وعيناها لا تفارقان النقش:

"كأنّ الطريق يعرف... كل شيء".

ثم فجأة، **تبدّل لون الضوء حولهم** .لم يعد أزرقًا، بل بدأ يتوهج بلون ذهبي باهت، وكأن **الذكريات بدأت تنهض** من حولهم.

أصوات بعيدة، وقع أقدام، أنينٌ خافت، **طقوسٌ قديمة** لا يراها إلا من كان من السلالة.

توقف الحصانان من تلقاء نفسيهما.

وفي نهاية الممر، ظهر **قوس حجري قديم**، غُطِّي بالطحالب والجذور، لكن في وسطه لُوِّنت بالأحمر كلمة:

"العتبة".

نظرت إليسيا إلى كايلان.

"إذا عبرنا... لا رجوع".

ابتسم كايلان بهدوء:

"لم أكن أنوي الرجوع منذ البداية".

وتقدّما.

ومع عبورهما العتبة، تلاشت الأصوات فجأة... وعمّ الصمت من جديد.

هبطت إليسيا وكايلان السلالم الحجرية ببطء، كل خطوة تُحدث صدىً خافتًا في الفراغ من حولهما. الهواء هناك لم يكن خانقًا كما توقّعت، بل **دافئًا على نحو غريب**، تنبعث منه **رائحة عتيقة تشبه رائحة الخشب المعتّق والورد اليابس**.

وفجأة...

أصوات.

أصوات أقدام خفيفة تتحرك، فُرش تُكنس، وأوانٍ تُرتّب، وأحاديث خافتة تهمس.

توقّفت إليسيا، ووضعت يدها على ذراع كايلان.

"هل تسمع...؟"

لم يكن يتوهّم.

لقد كان المكان – على نحو غير منطقي – **يبدو مأهولًا**.

ثم، ومع كل خطوة، بدأت الأضواء تظهر، ليس من المشاعل، بل كأن الجدران نفسها تتنفّس مشاهد من **زمانٍ آخر**.

عبر الممر المنحوت في الحجر، ظهرت **قاعة واسعة**، ذات سقف مقبب تتدلى منه ثريات بلورية، ومائدة طويلة مفروشة بأغطية حمراء، وعليها أصناف من الطعام الفاخر.

وفي مركزها...

جلسوا.

رجلٌ وسيم ذو وقار، يرتدي **وشاحًا ملكيًا داكنًا** يذكّر إليسيا بصور جدها فلادور.

إلى جواره، **امرأة ذات عينين ذهبيّتين**، شعرها مرفوع على شكل تاج مضفّر.

وبينهما، **شابان متشابهان**، يافعان، في أعمار متقاربة، يضحكان ويتحدثان بحرية. أحدهما مائل الرأس بابتسامة خجولة، والآخر مفعم بالحيوية، يرفع كأسًا من الفضة.

يشبهان **أوريان وألدريك**.

قلب إليسيا خفق بعنف.

"أبي... وعمّي؟"

لم تكن رؤيا مشوشة. كانت **حقيقية جدًا**، نابضة بالتفاصيل، كأن المكان ذاته يعرض ذاكرته.

قال كايلان بصوت منخفض:

"هل... هذا حقيقي؟"

لكنها لم تجبه.

عينها علِقت على ذلك **الدفء العائلي** النادر، تلك اللحظة التي لم تعرفها أبدًا، كأن الزمن يمنحها الآن ما حُرمت منه.

ثم، دون مقدّمات، ظهر **طفل صغير** في طرف القاعة، لا يتجاوز الخامسة، يركض وهو يضحك، يرتدي ملابس بسيطة.

طفل إحدى الخادمات.

كان يركض بسعادة بين أقدام الحاضرين، ثم وجّه خطواته نحوها.

إليسيا ابتسمت، خفّت على ركبتيها، **مدّت يدها لتستقبله...**

لكن...

مرّ من خلالها.

كأنها هواء.

شهقت، وتراجعت، وارتجّ قلبها.

الطفل أكمل ركضه دون أن يشعر بوجودها.

"إنها... صورة من الماضي!" قالت وهي تنظر إلى كايلان بدهشة.

لكن كايلان نفسه كان ينظر حوله، مذهولًا، كأن الزمن تسرّب من بين أصابعه.

ثم، لحظة خاطفة، التفت الشاب الشبيه بأوريان – كأنّه شعر بها – نظر إلى مكان وجودها، **بشكل مباشر.**

ونظر في عينيها.

لكن قبل أن تقول شيئًا، **تصدّع المشهد.**

الجدران بدأت تهتز.

الضوء تلاشى.

الأصوات خفتت.

ثم، كما لو كانت حكاية قديمة طُويت، عادت الجدران إلى ظلامها المعتاد.

إليسيا جلست على الأرض، أنفاسها متقطعة.

"لقد... رآني. أبي رأاني".

كايلان وضع يده على كتفها، وتمعن في الظلام:

"يبدو أن هذا المكان... يُخزن الذكريات. لكن بعضها لا يزال حيًّا".

هيستيريا المشهد بدأت تهدأ، لكنها تركت سؤالًا مُلحًا في عقل إليسيا:

لماذا عرض لها هذا الآن؟ ولماذا شعرت أن أباها... أراد أن يراها؟

لم يكد الصمت يعود إلى الممر بعد انطفاء الرؤيا، حتى سمعا **خشخشة خافتة**، كأن أحدهم يجرّ شيئًا على الأرض. التفت كايلان نحو مصدر الصوت، يده على مقبض سيفه.

ومن نفس الممر الذي دخلا منه، ظهرت **امرأة طاعنة في السن**، بالكاد تمشي. كانت تضع يدها العظمية على جدار الحجر، تتكئ عليه بصعوبة .**شعرها رمادي كالغبار**، وعيناها الغائرتان تحملان ضوءًا باهتًا من ماضٍ بعيد.

رداءها العتيق يلامس الأرض، وقد خيّط بلون أسود، أما صوتها فكان **رخيمًا ومبحوحًا**، كأنه خرج من صدى القرون.

قالت، وهي تتنفس بصعوبة:

"لم أكن أتوقع أن تطأ أقدامٌ بشرية هذا المكان مرة أخرى... لا في هذا الزمن".

تقدّمت إليسيا خطوة، وقلبها ينبض بالدهشة:

"من أنتِ؟ وكيف وصلتِ إلى هنا؟"

ابتسمت العجوز ابتسامة هادئة، ثم جلست ببطء على حجر بارز.

"أنا... لا أدري ما الاسم الذي يصلح لي الآن. مرّت أعوام كثيرة منذ ناداني أحدهم. كنتُ في ما مضى خادمة صغيرة، ثم حارسة لهذا المعبد بعد أن طُمس من كتب التاريخ".

قال كايلان بحذر:

"أهذا المكان... معبد؟"

هزّت العجوز رأسها:

"أكثر من ذلك... كان يومًا قلب الطقوس، قبل أن تُبنى الإمبراطورية فوقه... هنا عُقِدت العهود الأولى، وهنا... تم اختيار القربان".

تسارعت أنفاس إليسيا، تقدّمت نحو العجوز:

"القربان؟ أتعنين... أبي؟ أورِيان؟"

نظرت إليها العجوز طويلاً، كأنها تُقارن ملامحها بشيء في ذاكرتها، ثم همست:

"عيناكِ... هما عينا والدكِ... لم أره منذ الليلة التي حملوه فيها إلى الأسفل. كان فتىً شجاعًا...".

ارتجفت إليسيا:

"أكان قربان ؟"

ردّت العجوز بنبرة حزينة:

"لا. كان عمك "...

شهقت إليسيا.

"ألديك...؟"

أغمضت العجوز عينيها ببطء:

"كانا توأمين، روحين في جسدين. لكن أحدهما رفض بتضحة أخوه، فقبل أن يُمتكمل الطقس... بتقديمه هو القربان"

سقطت كلماتها كالسكاكين في صدر إليسيا.

"أجله رأيت في الرؤيا... أبي ضحّى بنفسه".

ابتسمت العجوز ابتسامة مرة:

"ربما... لأن روحكِ أرادت أن تراه كذلك".

ساد صمت ثقيل.

ثم قالت العجوز:

"لم أعد أملك الكثير من الوقت، لكن... إن كنتِ ابنة أورِيان، فالدم في عروقك يحمل الحقيقة. المعبد لم يُغلق بعد، والسؤال الحقيقي هو... هل جئتِ لتعرفي الحقيقة؟ أم لتغيّري مصيرًا كتب بدم أبيك؟"

نظرت إليسيا إلى كايلان... ثم عادت بعينيها إلى العجوز.

"جئتُ لأُنهي ما بدأه. وأُنقذ من تبقّى".

جلست العجوز على حجر عتيق في زاوية المعبد، وأمسكت بخصلة من شعرها كأنها تتحسس خيطًا من الماضي.

قالت بصوت حالم مكسور:

"ليس كل ما وُلد في هذا المعبد كان ظلمة، يا فتاة الإمبراطورية... في يومٍ من الأيام، وُجد فيه شيء يشبه النور... الحب".

تقدّمت إليسيا بخطوات خفيفة، وجلست أمام العجوز، كطفلة تنصت لحكاية قبل النوم، لكن عيناها كانتا مليئتين بترقّب.

همست العجوز:

"كانت هناك خادمة... فتاة من عامة الشعب. لا نسب ولا اسم، فقط قلب نقي وعينان مثل الغدير. كانت تخدم في القصر العلوي... وهناك، التقت به".

تساءل كايلان:

"بمن؟"

أجابت العجوز بنبرة حزينة:

"بالأمير أورِيان".

شهقت إليسيا... كأن صوتها قد التوى داخلها:

"أبي؟"!

أومأت العجوز:

"كان شابًا هادئًا، بعينين تحملان شيئًا من الحزن... التقى بها مصادفة، أو ربما كان القدر ينتظر تلك اللحظة. كانت تبتسم له دون خوف، وتردّ على كلامه كأنها لا ترى التاج فوق رأسه. وهذا ما أغواه... أنها رأته إنسانًا، لا وريثًا للعرش".

ابتسمت العجوز ابتسامة حزينة:

"تسللت لقاءاتهما بين الأروقة، تحت ضوء القمر، في الحدائق، وأحيانًا في هذا المعبد... حيث اعتقد الجميع أن الأرواح وحدها من تسكنه".

سألت إليسيا، تكاد لا تصدق:

"هل كانت... أمي؟"

سكتت العجوز لحظة، ثم قالت:

"ما أعرفه، أن أورِيان أحبها بصدق. وقد همّ أن يتخلى عن كل شيء لأجلها. لكن"...

ضحكت العجوز فجأة، ضحكة خفيفة كأنها خرجت رغمًا عنها، ثم مسحت دمعة سالت من طرف عينها:

قالت وهي تهزّ رأسها:

"كان هناك موقف... لا أنساه حتى بعد كل هذا الزمن"...

نظرت إلى إليسيا، ثم أكملت بشيء من المرح الحزين:

"في إحدى الليالي، كان الأمير أورِيان قد تنكر بزيّ أحد الخدم ليتسلل إلى المطبخ... أراد أن يحضر لها فطيرة كانت تحبها، من يد الطباخة الكبيرة التي لم تكن تسمح لأحد بدخول مطبخها".

قهقهت العجوز، وواصلت:

"ولسوء حظه، لم يكن يعرف أن الفطيرة تحتاج وقتًا طويلاً لتبرد... وحين حاول إخراجها من الصينية بسرعة، سقطت على الأرض، ثم سقط هو فوقها"!

رفعت حاجبيها ضاحكة:

"دخلت أمك – وكانت خادمة وقتها – فوجدته متكورًا على الأرض، وثيابه مغطاة بالعجين والتوت، والكلب الصغير للحرس يلعق أصابعه"!

ضحكت إليسيا رغمًا عنها، وقالت:

"أبي ؟"!

أومأت العجوز:

"نعم، والدك! وقف متوترًا وقال :*هذا ليس ما يبدو عليه الأمر!*لكنها انفجرت ضاحكة، وصرّحت له يومها أنها لم ترَ أميرًا بهذا الغباء الجميل من قبل".

هزت العجوز كتفيها:

"ومنذ تلك الليلة... صار بينهما سر صغير... فطيرة التوت".

سكنت الضحكات للحظة، كأن العجوز غاصت أعمق في ذكرياتها، ثم قالت بنبرة هادئة:

"كان لقاؤهما الأول في القصر صدفة... لكن اللقاءات التالية لم تكن كذلك أبدًا".

رفعت رأسها نحو السقف كأنها ترى المشهد مرسومًا هناك:

"كان أورِيان دائمًا يجد حيلة لرؤيتها، يطلب منها إحضار الماء، أو يوكل إليها مهمة تنظيف شرفته رغم أنها لم تكن من مهامها... وكان يجلس هناك، يتظاهر بالقراءة، بينما يختلس النظر إليها وهي تنفض الغبار عن الستائر".

ابتسمت العجوز:

"وفي أحد الأيام، ترك لها وردة مطوية داخل منشفة، كتب فيها: *إن كنتِ ترين السماء حين ترفعين عينيك، فأنا أراها حين تنظرين إليّ*".

غطت فمها بكفها المتجعدة، تضحك بحياء:

"كانت خجولة، أمك... لكنها لم تردعه. فقط صارت تبتسم كلما رأته. وبعد أشهر، صار اللقاء بينهما عادة... تحت شجرة الرمان في الجناح الجنوبي، قبل الفجر بدقائق. كل يوم".

نظرت إلى إليسيا نظرة خفيفة، وأكملت بصوت أليم:

"حين اكتشف جدك الأمر، ثار... لم يكن يليق بأمير أن يقع في حب خادمة. لكن أورِيان... لم يتراجع".

زفرت العجوز تنهيدة طويلة:

"أقسم أمام المجلس الإمبراطوري أنه سيتخلى عن لقبه إن لزم الأمر. قال لهم : *إن كانت الإمبراطورية لا تتسع لحبي، فلتضيق بي*".

تبللت عيناها وهي تضيف:

"ولأول مرة في التاريخ، كُسر التقليد... لم يُنفَ الأمير، ولم تُعاقب الخادمة. بل زُيّن القصر من أجل زفاف لا يُنسى... قُدمت فيه فطائر التوت بدل الكعك الملكي".

نظرت العجوز مباشرة إلى عيني إليسيا:

"أنت ثمرة ذلك التحدي، يا صغيرة. ثمرة قلبين لم يريا في العالم سوى بعضهما".

ضحكت العجوز ضحكة قصيرة وهي تتابع:

"في يوم زفاف والديك، كان القصر أشبه بحديقة سماوية... المصابيح الذهبية تتدلى كنجوم صغيرة، والورد ينتشر في كل زاوية حتى أنكِ تشمين عبيره الآن، أليس كذلك؟"

هزّت إليسيا رأسها بصمت، مبتسمة رغم خفقات قلبها.

قالت العجوز وقد لمعت عيناها بشيء من التهكم العذب:

"لكن الحدث الحقيقي لم يكن فستان الزفاف، ولا الكلمات التي نُطقت... بل كان ظهور أخت والدتك".

رفعت حاجبها وتابعت:

"كانت في غاية الجمال... شعرها يتهادى كسيل من الليل، وعيناها مثل زهر الأرجوان عند المغيب. دخلت بخفة، وكأنها لا تمشي بل تنساب".

توقفت العجوز للحظة ثم تمتمت:

"وحينها... توقف الزمن للحظة".

نظرت إليسيا بفضول، فسارعت العجوز بالإيضاح:

"كان ألدريك واقفًا بين المهنئين، كعادته، برباطة جأشه المعتادة، لكنه... حين رآها، لم يرمش حتى. كأن العالم كله تلاشى ما عداها".

قهقهت العجوز بخفة، وقالت:

"نعم، يا صغيرة... لم يكن في العائلة من يستطيع كسر قناع ألدريك البارد. لكنه في تلك الليلة، بدا كصبي يحدق في حلم".

سكتت قليلاً، ثم مالت للأمام وأضافت هامسة:

"أمك لاحظت الأمر... ضحكت في سرها، لكنها قالت لي لاحقًا: *إن وقع ألدريك في الحب، فستكون النهاية أعذب مما نظن... أو أشد مرارة.*

ابتسمت العجوز ونظرت إلى نقطة بعيدة، كأنها ترى شبح الماضي وهو يعبر أمامها.

"كنت أراقبهم من بعيد... ألدريك، الأمير المتزن الصارم، يتحوّل أمام أخت والدتك إلى فتى خجول، مراهق، يركض خلف فراشة لا يستطيع الإمساك بها".

ضحكت ضحكة ناعمة وقالت:

"أذكر يومًا في الحديقة الكبرى... كانت الدتك وشقيقتها تسرحن شعر بعضهما البعض تحت ظلال الياسمين. والدتك... اسمها لورينا، كانت أكثر هدوءًا، دائمًا ما تكتب في دفتر صغير وتحلم. أما شقيقتها... أرولينا، فكانت شُعلة".

أمالت العجوز رأسها كأنها تسمع صوتًا بعيدًا:

"كان ألدريك يلاحق أرولينا في كل مكان! بين الأروقة، خلف الأعمدة، في حفلات العشاء... وهي؟ كانت تضحك، تركض، تلوّح له بمنديل ثم تختفي".

أغمضت عينيها لحظة ثم فتحتها وقد لمعت بريقاً:

"وفي ليلة الحفل الإمبراطوري... ارتدت أرولينا ثوبًا من الفضة الخالصة، وكانت مثل القمر يمشي بيننا. أما ألدريك، فوقف مذهولًا لدرجة أنه نسي البروتوكول. لا أنسى كيف تقدم منها أخيرًا، ومد يده وقال: *أرولينا، هل ترقصين؟* "

ابتسمت العجوز بتأثر:

"ترددت، ثم أخذت يده. ورقصا تحت ضوء القمر، وسط دهشة الجميع. كانوا يتناغمون كأن اللحن خُلق لأجلهما وحدهما".

نظرت إلى إليسيا ثم تمتمت:

"أما والدتك لورينا... فكانت تراقب من بعيد، تبتسم، ثم تعود لتكتب شيئًا في دفترها. كنت أعرف أنها تكتب عنه... عن أوريان، والدك".

تنهدت العجوز طويلاً، كأن الذكرى أثقلت على صدرها.

"أتدرين، يا صغيرتي؟ لم تكن قصة ألدريك وأرولينا مجرّد لهو أو إعجاب عابر... لقد أحبّها، بحق".

نظرت إليها إليسيا في صمت، تتوق لكل كلمة.

"ذهب إلى والدكِ فلادور — جدكِ — في صباح مشمس بعد أيام من حفلة الزفاف. دخل عليه بثقة وقال له : *أبي، أريد الزواج من أرولينا*".

قطبت إليسيا جبينها، تهمس:

"أرولينا؟"

سكتت قليلًا، ثم قالت بصوت منخفض:

"قال له : *لن يتزوج ابني الثاني من خادمة أيضًا*".

شعرت إليسيا بقبضة على قلبها، فأردفت العجوز، وكأنها تقرأ مشاعرها:

"كان يقصد أمكِ، لورينا. جدك كان يرى أن الأمير أوريان بالفعل خرج عن العرف بزواجه من فتاة لا تنتمي إلى طبقة النبلاء... ولم يسمح أن يتكرر الأمر مجددًا".

وضعت العجوز يدها على قلبها وقالت:

"ألدريك... لم يغضب، لم يصرخ. فقط انسحب بهدوء، لكنه تهشّم من الداخل".

نظرت إليها نظرة حزينة، وقالت:

"خمس سنوات ظلّ يهيم في ذاك الحب، ينتظر أن يرق قلب والده، أن يمنحه الإذن. لم يقترب من أي امرأة، لم ينسَ ليانا يومًا. وكان كلما رآها، تتجدد حرائقه. وهي؟ كانت تبتسم، لكنها لم تتزوجه. لم تشأ أن تكون عائقًا بينه وبين أسرته".

وقفت العجوز ببطء، تستند إلى الحائط بأصابع مرتجفة، ثم التفتت إلى إليسيا ونادت بصوت أجشّ:

"تعالي، يا ابنة أوريان... اتبعيني، فالوقت قد حان".

نظرت إليها إليسيا بتردد، ثم تبعتها عبر ممر حجري ضيق، حيث لحق بهما كايلان في صمت، يراقب المكان بنظرات حذرة، يده على مقبض سيفه كأنما يشعر أن شيئًا مهمًا يحدث.

مرّوا عبر بوابات حجرية قديمة، متهالكة، كأنها لم تُفتح منذ قرون، حتى وصلوا إلى غرفة مظلمة، سقفها متشقق، وريح خفيفة تتسلل من النوافذ الصغيرة المهشّمة. في وسط الغرفة كان هناك سرير خشبي قديم.

وقفت العجوز تنظر إليه بحنين، ثم التفتت إليهم قائلة:

"هذه... غرفتي".

ثم خطت ببطء إلى الداخل، وأشارت لإليسيا:

"تعالي، لا تخافي".

دخلت إليسيا الغرفة بحذر، ووقف كايلان عند الباب، يراقب بصمت.

جثت العجوز على ركبتيها بصعوبة، ثم مدت يدها تحت السرير وسحبت صندوقًا خشبيًا عتيقًا، نُقشت عليه رموز غريبة وزخارف متداخلة.

فتحت الصندوق، وداخلَه كان ثوب مخملي بلون الأرجوان، مطرز بخيوط فضية، وسكين صغير نُقش على مقبضه شعار الشمس، وكان لا يزال يلمع رغم وجود بقعة دم باهتة على نصلِه.

مدّت الثوب والسكين إلى إليسيا، قائلة:

"هذا... كان آخر ما لمسته يدها".

ثم أخرجت من الصندوق كتابًا مذهب الحواف، مزينًا برسوم دقيقة، كتب على غلافه بلون ذهبي : **"لورينا."**

نظرت إليسيا إلى الاسم، وارتجفت أصابعها، همست:

"هذا... هذا اسم أمي".

ابتسمت العجوز ابتسامة حزينة، ثم رفعت عينيها المبللتين بالدموع ونظرت إليها بحنان عميق، وقالت:

"نعم، لورينا... كانت ابنتي".

تراجعت إليسيا خطوة إلى الوراء، وجحظت عيناها:

"أنتِ... أنتِ جدتي؟"

هزّت العجوز رأسها موافقة، ودمعة تسللت على خدها المتجعد

مدت يدها المرتجفة ولمست خد إليسيا بلطف، كأنها تتحسس الزمن في ملامحها.

قالت بصوت متهدج وقد بدأت دموعها تنهمر ببطء:

"يا إلهي... كأن الزمن عاد بي، أنتِ... أنتِ تشبهينها".

أخفضت نظرها إلى الثوب في يد إليسيا، وهمست:

"أورلينا"...

نظرت إليها إليسيا بدهشة، بينما تابعت الجدة كلامها بصوت يقطعه البكاء:

"كانت خفيفة الروح، عميقة النظرات، وكانت عيناها تمتلئان بالحياة، تمامًا كما تفعلين الآن... حين نظرت إليكِ لأول مرة، لم أصدق عيني... لم أصدق أنني أراها من جديد".

تحرك قلب إليسيا بخفقان غير مألوف، وارتجف صوتها وهي تقول:

"لكن... لقد رأيت عمي ألدريك في حلم... قال لي شيئًا مشابهًا، قال: 'تشبهينها...' كنت أظن أنه يقصد أمي"...

رفعت العجوز نظرها إليها، عيناها تغرقان في الذكرى، ثم قالت بنبرة محمومة:

"كان يقصد أورلينا، يا بنيّتي... لقد أحبها حدّ الجنون، وكان ذلك الحب محرمًا... ومؤلمًا".

سقطت دمعة ساخنة من عين الجدة على يد إليسيا وهي تمسكها بشدة:

"ألدريك... لم يتعافَ منها قط، حتى بعد أن رفض والدك فلادور زواجه منها... ظلّ خمس سنين يهيم، يصلي ويكتب ويعود كل عام إلى نفس المكان الذي كانا يلتقيان فيه... أنتِ تحملين ملامحها، لكنك تحملين وجع العائلة كلها أيضًا".

وضعت الجدة جبينها على جبين إليسيا، وقالت بصوت خافت:

"أهلاً بك يا حفيدتي... يا ظل أورلينا الحيّ".

ثم مدت ذراعيها المرتجفتين، واحتضنت حفيدتها كما لو كانت تحاول أن تعيد الحياة إلى صدرها المكسور.

ضغطت إليسيا جبينها على كتف العجوز، ولفّتها بذراعيها دون أن تنبس بكلمة. كان العناق طويلاً، صامتًا، تملأه الأصوات غير المنطوقة، المخبأة منذ سنين طويلة.

بدأ جسد الجدة يرتجف في أحضانها، وارتفع صوت أنينها العجوز كأنّه قادم من بئر عميق من الفقد:

"يا صغيرتي... يا زهرةً لم أرها تنبت... يا امتداد أورلينا ولورينا... لم أكن أعلم أنني سأشعر بدفء ابنتيّ في هذا العمر"...

كانت تتحسّس شعر إليسيا وكتفيها، وكأنها تتأكد أنها ليست خيالاً.

"لطالما حلمت أن ألمس يد لورينا مرة أخرى، أو أسمع ضحكة أورلينا وهي تركض في الممرات... وحين ماتتا، مات جزء مني... لكنك هنا... لحمٌ من لحمهما، روحٌ من روحهما"...

اغرورقت عينا إليسيا بالدموع، لكنها لم تستطع التحدث. شعرت أن قلب الجدة ينهار ببطء بين ذراعيها، وهي تشهق بالحنين:

"أواه لو تعلمين كم انتظرت هذا العناق... كم تخيلت مئات المرات أن تعود لورينا لتقول لي 'أمي، أنا هنا'... وها أنت تقولينها بصمت، يا نور القلب"...

مرت لحظات لم يتحرك فيها الزمن. سوى أنين الجدة، ودفء العناق، ودموع إليسيا التي بلّلت كتفها.

ثم همست الجدة أخيرًا:

"لا ترحلي بسرعة، دعي قلبي يتذكّر كيف كان شعور أن أكون أماً"...

ظلّت الجدة تحتضن إليسيا حتى أرهقهما التعب، وتراخت أجسادهم بين الحنين والدموع، وسقطتا معًا فوق الفراش الرثّ، كأن الزمن قرر أن يمنحهما هدنة قصيرة بعد سنوات من الفقد.

أحاطت الجدة حفيدتها بذراعين نحيلتين، بينما وضعت إليسيا رأسها قرب صدرها، تستمع إلى خفقات قلب خافتة.

جلس كايلان صامتًا قرب الباب، يراقب هذا اللقاء الذي لا يشبه شيئًا من عالمه، ثم نهض على مهل، كأن وجوده قد صار زائداً.

نظر إليهما للحظة... إليسيا وقد ارتسمت على وجهها ملامح الطفولة، هادئة في حضن الجدة، والجدة وقد انفرجت شفتاها بابتسامة حزينة كأنها تحلم.

تنهد كايلان ببطء، ثم فتح الباب الخشبي المتهالك على مهل كي لا يُحدث صوتاً.

خرج إلى الممرات القديمة، والفضول يشتعل في داخله.

كانت الجدران تعجّ بشقوق كأن الزمن قد نحت فيها حكايات منسية، ولفّ المكان ضوء شاحب من شقوق السقف، يعكس النقوش القديمة التي زينت الحجر.

"ما هذا المكان بحق الآلهة "...تمتم كايلان، يمشي بحذر بين الأحجار المتهالكة، يتأمل رسومات طقوس، ووجوه من عهد سحيق، ويراقب تماثيل لملوك وكهنة، بعضها متهشم، وبعضها لا تزال عيناه تراقبك أينما ذهبت.

ثم توقف أمام جدار شبه مخفي، مغطى بغبار كثيف، وعليه بصمة كف بارزة...

مدّ يده ليمسح الغبار.

فكشفت نقش قديم بخط دقيق، محفور في الحجر وكأنه وُضع خصيصًا لمن يبحث عن معنى أعمق:

"كلّ ما تراه... هو امتدادٌ لروحك.
لكن لا تُصدقه... ولا تُكذّبه".

قرأ العبارة بصوت منخفض، فترددت كهمسةٍ في الفراغ من حوله. شيء فيها زعزع يقينه، كأنها تنتمي لعالم لا يخضع للمنطق.

اقترب أكثر، يمدّ يده ليتتبع النقوش بإصبعه، وإذا بعيناه تقعان على سطرٍ آخر، كُتب بلغة قديمة لكنها مفهومة، كأن الحجر نفسه يريد أن يُفهم:

"كلُّ من يفتح هذا الباب...
سيرى ما كان عليه الأمر قبل".

توقف كايلان، يحدّق في الكلمات، ثم في الباب المخبأ تحت النقوش.

لم يكن بابًا فعليًا، بل دائرة حجرية محفوفة بنقوش نجمية، وفي وسطها مكان غائر، أشبه بقفل لا يُفتح إلا بشيء معيّن... ربما رمز، أو قطعة مفقودة.

مدّ كايلان يده نحو الدائرة، وما إن لمس الحجر حتى ارتجف المكان برعشة خفيفة، كأن الجدار نفسه قد تنفّس.

ارتدّ إلى الخلف قليلاً، ثم عاد ليلمس النقش من جديد، لكن هذه المرة... لم يحدث شيء.

تمتم:

"امتداد لروحي؟ رؤية لما كان قبل؟ أي نوع من الأسرار يُخفيه هذا المكان؟"

حدّق في النقش الغائر في منتصف الدائرة، وفكر:

"هل المفاتيح موجودة في القصص التي سمعتها إليسيا من الجدة؟ هل هذا المعبد يحفظ ذكريات الإمبراطورية كما كانت... لا كما هي؟"

ثم قرر العودة لإخبار إليسيا، لكن قبل أن يتحرك، سمع همساً، كأنه يأتي من خلف الجدار:

"أوريان... أورلينا... ألديك"...

أسماءٌ مألوفة... لكنها خرجت من العدم.

نظر كايلان إلى النقش مجددًا، ثم قال هامسًا لنفسه:

"ربما لم نأتِ إلى هنا بالصدفة".

ظل كايلان واقفًا أمام النقوش، يتردد بين العودة وإكمال الاستكشاف، لكن همس الأسماء الذي سمعه لم يكن عادياً... فقد تكرر مجددًا، وهذه المرة كان أحدها يخصه:

"أوريان... أورلينا... كايلان"...

تجمد الدم في عروقه.

"أنا؟ لا... لا يمكن"...

همس كايلان، لكن الحروف على الجدار بدأت تتوهّج، ثم انفتحت فجأة دائرة صغيرة في الحائط وكأنها تجاوبت مع اسمه.

خلفه، ظهرت حجرة خفية، مظلمة إلا من نورٍ خافت يتسلّل من الأعلى.

دخل كايلان مترددًا...

كانت الغرفة تغرق في سكونٍ ثقيل، سوى صوت أنفاس كايلان المتقطعة.

الصور التي انهمرت على عقله لم تكن رؤىً ولا خيالًا... بل **ذكريات**.

ركضت امرأة شابة في الظلام... بشعرٍ طويل منسدل، وثوبٍ حريري ممزق، تحمله بين ذراعيها كأنه كنز.
دموعها تختلط بالدماء التي تغطي كتفها.
كانت تهمس له:

"اصمت، صغيري... سننجو، يجب أن ننجو"...

وكان هو، طفلًا صغيرًا لا يتجاوز العامين، يتشبث بثوبها، خائفًا لكنه صامت.

ثم رأى شاب...

شابٌّ في مقتبل العمر، طويل، قوي، ذو عينين بلون البحر في الشتاء... يشبهه كثيرًا.
كان يرتدي درعًا يحمل نفس رمز القلادة — شمس بسبعة أطراف.
كان يُلقي كلماتٍ على جنوده، بعينين مليئتين بالإيمان والموت الوشيك:

"إن سقطنا، فليكن بعزة...
وإن رحلنا، فلنُخلّد الحق".

ثم يأتي السهم... يسقط الأب...
وصوت الأم يصرخ وهو يُنتزع منها، لا تدري إن كانت فقدت كل شيء أم ما زال ابنها حيًا.

أفاق كايلان من رؤاه وهو يلهث.
"لقد كانت أمي... هذه كانت أمي، وأنا... أنا كنت هناك".

أمسك القلادة بقوة، وهي تلمع تحت يده، كأنها تعترف بما رآه.

كان الشاب الذي سقط والده، وكان الطفل الذي نُقذ من تحت أنقاض الحرب، وكان... وريثًا لأرضٍ لم يعرفها، ولدمٍ لا يزال يُطارده صمتًا".

كان قلب كايلان لا يزال يرتجف من الذكرى... لكنه لم يتوقف.
تقدم في الممرات القديمة، والمصابيح الجدارية المنطفئة ترسم بظلالها أشكالًا غريبة على الجدران المهترئة.

وصل إلى بوابة حجرية نصف منفتحة، دفعها بصعوبة، فتأوهت مفصلاتها كأنها لم تتحرك منذ قرون.
دخل إلى غرفة غارقة في الغبار والعناكب، ولكن في وسطها ...**رفوف من كتب جلدية، مهترئة ولكنها ما تزال قائمة.**

اقترب ببطء، عينيه تتفحصان العناوين المختفية تحت طبقات الزمن.

ثم رأى كتابًا يختلف عن البقية...
كان ملفوفًا بقماش أرجواني باهت، محفور عليه رمز الشمس السباعية، نفس الرمز على قلادته.
مدّ يده المرتجفة نحوه، ونفض الغبار، وفتح الصفحة الأولى.

كتب بخط قديم:

"سِفر إمبراطورية إيرينفال – السجل الأخير"

توقف كايلان، وكأن الهواء نفسه توقف معه.
"إيرينفال..." تمتم، الاسم لم يكن غريبًا... بل محفور في عمق لا يعرفه.

بدأ في القراءة:

"كنّا يومًا شعلةً في قلب الشمال، إمبراطورية عادلة عُرفت بالحكمة والنور. حكمنا من قلعة النور الأبدي، وكانت شمسنا السباعية رمزًا للوحدة بين الشعوب السبعة".

"لكن الطمع، والوعود الزائفة التي جاءت من الجنوب، فرّقتنا. في العام السابع بعد معاهدة الشتاء، سقطت القلعة... وتبخرت الأسرة المالكة".

"قيل إن الطفل الأخير، ابن الأمير لوراد، نُقل خلسةً تحت غطاء الليل، وبُعث بعيدًا لينجو... لا أحد يعرف إن كان نجا حقًا".

أغلق كايلان الكتاب، يديه ترتعشان.

لوراد... كان اسم أخوه.
والطفل...
هو أخي.

الوريث الأخير لإيرينفال أخي.

بينما كايلان لا يزال يحدّق في الكتاب، لاحظ أن بعض الصفحات في نهايته كانت ملتصقة، كما لو أن أحدهم خبأ بينها شيئًا.
فتحها ببطء، فإذا بظرف صغير قديم ينسدل من بينها ويسقط أرضًا.
انحنى يلتقطه، تفكك الخيط الحريري الذي يربطه، وانبعثت رائحة الورق القديم والمحنّط، كرائحة الذكريات المدفونة.

فتح الظرف... ووجد **رسالة بخطٍ مائلٍ أنيق**، كان واضحًا أنها قد كُتبت على عجل، وبعض حروفها تلطخت بالدم أو الدمع.

قرأ كايلان:

"إلى من يجد هذه الرسالة ...
إلى من يملك الشجاعة ليقرأ النهاية...
هذه كلماتي الأخيرة، أنا، لوراد، أمير إيرينفال".

"حين تنقلب الموازين، لا يسع الملك إلا أن يصبح أبًا، والخوف على الوطن يتلاشى أمام الخوف على أبنائه"...

"خذوا الطفلين بعيدًا، أنقذوهما، حتى وإن حملتموهما إلى حضن الإمبراطورية التي تآمرت علينا، التي خذلت العهد وأشعلت نار الفناء".

"لا تثقوا بأحد من آل التاج الشرقي، لكن إن استطعتم أن تخفوهما في ظل ذلك القصر العظيم، فليفعل القدر ما يشاء".

"إيرينفال سقطت، لكن الدم لا يُمحى".

—لوراد

ثم وجد **ورقة ثانية** بخط يد أكثر رقة، وأكثر ألمًا...
خط زوجة لوراد ...**والدة كايلان.**

قرأ:

"ابني... إن قرأت هذه الرسالة، فاعلم أننا أحببناك كما لم يحب قلبان من قبل".

"كنتَ رضيعًا حين سقطت السماء علينا، لم تسمع صرخاتنا ولا رائحة الرماد... كنتَ النور الوحيد في ذلك الظلام".

"أخوك... أختك... لا أعرف إن نجونا جميعًا، لكني صليت، كل ليلة، أن تكبر يومًا بعيدًا عن صوت السيوف".

"سامحني إن كنت غبت عنك. سامحني إن وجدتني في ذكريات الغياب فقط".

"اسمك كان أملنا".

—أمك، إلينيا.

تجمّد كايلان في مكانه، وعيناه تسبحان بالدموع.

أخت؟ هل لذينا أخت أيضا؟
إلينيا... اسمٌ لم يعرفه، لكنه يسكن قلبه الآن كما لو وُلد به.

أعاد كايلان طيّ الرسالتين بعناية، وقبّلهما، ثم رفع نظره إلى الجدار الحجري أمامه...
كان عليه أن يعرف كل شيء.
عن سقوط إيرينفال، وعن عائلته...
وعن من بقي حيًا غيره.

وهو لا يزال جاثمًا على الأرض، تتساقط الكلمات من الرسائل على قلبه ....
فجأة، بدأ **صوت خافت**، أقرب إلى **أنين طويل**، يتصاعد من جدران الغرفة، كأن الأحجار نفسها تتنفس.

ثم تصاعد الأنين ليتحوّل إلى **ضجيج غريب، مزعج،**
كصدى صرخات مكتومة،
كخدش أظافر فوق زجاج،
كأجراس مكسورة تُقرَع في الفجر.

رفع كايلان رأسه، وضع يديه على أذنيه،
لكنه لم يستطع حجب الصوت... بل كاد يفقد توازنه من شدّته.

همس لنفسه، مضطربًا:
"ما هذا؟! من أين يأتي؟"!

تراجع ببطء، ثم ركض نحو الباب الذي دخل منه،
أدار مقبضه...

لكن لا شيء.

لا وجود لباب.

لا وجود لأي أثر لتلك الغرفة خلفه.
مجرد **جدار حجري صامت،** كأن شيئًا لم يكن.

التفت خلفه، لم يكن هناك سوى **الطريق الحجري القديم** الذي أتى منه أول مرة.
نظر إلى يديه، لم يكن يحمل الكتاب، ولا الرسائل، ولا الظرف.
كأن كل شيء اختفى في لحظة واحدة.

وقف هناك، متوتر الأنفاس، قلبه ينبض برعب صامت، وعيناه ترتجفان.

هل كانت رؤيا؟ هل دخل غرفة من الذاكرة؟ أم أن المعبد نفسه حيّ وله إرادة؟

همس:

"أبي... أمي"...

لكن الجدران لم تجبه سوى بصدى خطواته.

تحرك جفن إليسيا، ثم ببطء، فتحت عينيها...

لكنها لم تكن بعد في الغرفة،
كانت في **مكان آخر.**

سماء بلون الرماد...
أرض ملساء كأنها مصقولة بالدموع ،
صمت... صمت يشبه صلاة مقطوعة.

شعرت **بذراعين** يحيطان بها،
ذراعان دافئتان، قويّتان... مألوفتان.

رفعت رأسها ببطء،
لتجد **وجهًا تعرفه... وجهًا لم تره منذ أن كانت طفلة.**

"أبي...؟"

ابتسم أوريان، ومرر يده على شعرها:
"كبرتِ، يا أميرتي...".

ارتمت إليسيا في حضنه،
كأن العالم كله اختصر في هذا العناق،
كأن الطفلة التي بداخلها خرجت من خنادق الألم لتبكي بين ذراعيه.

همس لها بعد برهة:
"لكن الوقت ليس للدموع، إليسيا... جئت لأحذّرك".

نظرت إليه في حيرة، بين الرجاء والخوف:

"مِمّن؟"

"من الذي تمشين معه... من الذي تثقين به".

تجمدت ملامحها:

"كايلان؟"

أومأ أوريان برأسه، وصوته يثقل بالحزن:

"إنه من نسلهم... أخ لدراكاريون. الدم ذاته يجري فيه".

اتسعت عيناها:

"لكنه... لم يؤذني! لم يكن مثلهم"!

همس أوريان:

"الدم لا يكذب، إليسيا. وإن أخفى نفسه، فإن المعبد لا ينسى".

وفجأة...

قطرة تسقط من السماء الرمادية...

ثم **لثانية.**

نظرت إليسيا إلى الأعلى:

لم تكن مطرًا... بل قطرات.

قطرات صافية، دافئة، تنهمر من اللا-مكان.

سألت بصوت مهتز:

"من أين تأتي هذه القطرات...؟"

أنزل أوريان رأسه، وصوته صار كهمس قبر:

"انها دموع. لأطفال لم يُمنحوا فرصة النور.
كانوا قرابين، مثلما كنتِ ستكونين...
أرواحهم لا تزال تبكي في هذا المكان،
والمعبد... يسمع كل شيء".

شعرت إليسيا بالبرد يخترق قلبها،
ثم شهقة مكتومة تخرج منها،
كأن الأرواح نفسها تمر عبرها في تلك اللحظة.

نظرت إليسيا حولها،
إلى ذلك الفراغ الرمادي، الممتد بلا نهاية،
حيث لا شمس، ولا ظل،
ولا حياة... سوى ذكرياتٍ تتنفس.

رفعت عينيها إلى أبيها وسألته بصوت مختنق:

"أين نحن...؟ ما هذا المكان؟"

ظل أوريان صامتًا لوهلة،
ثم نظر إلى الأفق البعيد، كأنه يرى شيئًا لا يُرى،

وهمس بصوتٍ مُكسَّر:

"هنا... تعيش أرواح من أُهدروا...
كل من قدّموه قربانًا قبل أوانه،
كل من لم يُمنح الخيار...
هذا المكان... لهم".

ثم التفت نحوها، وأمسك بيديها المرتجفتين:

"نحن لا نموت هنا يا إليسيا،
نحن نبقى... نُراقب، ننتظر، نرى الحقيقة،
وهذا... هو نصيبنا".

تسارعت أنفاسها،
شعرت بأن الهواء يضيق حولها...
كأن الجدران الخفية تنهار فوق صدرها.

"أنا...هل ستبقى هنا الى الابد! "صرخت.
"ماذا يحدث في هذا العالم. لما لا تريدون اخباري ! "

لكن صوت بكائها خنق الكلمات،
انحنت على الأرض الرمادية،
دموعها تسقط، تختلط بتلك القطرات المتساقطة من السماء...

أوريان انحنى نحوها،
ضمها إلى صدره،

وصوته يتهدج:

"لهذا جئت يا صغيرتي...
كي لا تلحقي بنا... كي لا تنسي من أنت".

صمت للحظة، ثم همس وكأنه يدعوها من بعيد:

"عودي... إليسيا، عودي قبل أن يُغلق الباب".

وفجأة، شعرت **بخفق في قلبها**،
كأن شيئًا يسحبها من الداخل...
كأن بابًا ما يُفتح، وآخر يُغلق...

فتحت إليسيا عينيها ببطء... صوت قلبها لا يزال يخفق بإيقاع رؤياها

. وجدت نفسها في أحضانٍ دافئة، أصابع نحيلة تمسح على شعرها، وأنين خافت ينبض من صدر الجدة.

"أورلينا الصغيرة... لقد عدتِ إليّ"... همست الجدة، ودموعها ما زالت تبلل كتفها.

رفعت إليسيا رأسها، لم تتكلم.
كل شيء كان أثقل من الكلمات.

وقبل أن تنبس بشيء، انفتح الباب المتهالك ببطء، ودخل **كايلان** بخطى سريعة، وجهه مشدود، وملامحه مضطربة.

"أنت بخير؟ "قالها وهو يقترب، ينظر إلى عينيها،
كأنما يتحقق أنها ما تزال هنا، ما تزال إليسيا نفسها.

هزّت رأسها بخفة، وجلست،
بينما وقفت الجدة تمسح دموعها وتنظر إلى كايلان بتركيز، ثم تحركت ببطء، تاركة المجال له ليجلس.

جلس كايلان قربها، لكنه لم يقترب أكثر من اللازم.
لم يكن يعلم كيف يبدأ، ففي صدره رواسب الذكريات، والاسم الذي نُسي منذ سنين...
وفي قلبه، هوية لا يريد أن يعترف بها حتى لنفسه.

"كنت أبحث في الخارج... المكان معقد، لكنه قديم جدًا".
قالها بنبرة متماسكة، لكنها لم تخفِ التوتر في عينيه.

نظرت إليه إليسيا، ثم همست:
"هل وجدت شيئًا...؟"

سكت، ثم ابتسم ابتسامة باهتة:
"لا شيء يستحق الذكر... مجرد أطلال وأوهام قديمة".

هزّت رأسها، وارتسم حزن عميق على وجهها،
ثم همست بدورها:
"أنا أيضًا... رأيت شيئًا... مجرد حلم".

لكن عيناها لم تطرفا وهو ينظر إليها،وكأنها تبحث عن ما لم يُقال في صوته.

وهو بدوره، نظر إلى ملامحها، إلى تلك النظرة التي كانت تشبه "أورلينا" كثيرًا...
وأراد أن يسأل، أراد أن يقول:
"من كان ذلك؟ هل كان أباك؟ أم ألدريك؟"
لكنه صمت.

وبقي كلاهما يجلس في تلك الغرفة الرثة، كلٌّ منهما يحمل سرا كالجمر في صدره،
ولا أحد يجرؤ على أن يمد يده إليه...

في اللحظة التي خرج فيها كايلان من الغرفة متثاقل الخطى،
تنفّست إليسيا بعمق، كما لو أنها كانت تحبس كل شيء منذ زمن.

نظرت حولها، ثم إلى الصندوق القديم الذي لا يزال مفتوحًا قرب السرير.
جثت على ركبتيها ببطء، وسحبت منه الفستان الذي قالت الجدة إنه كان لأورلينا.
ثوب من قماش ناعم، ما زال يحمل بريق الذكرى،
تلمسته بأصابع مرتجفة... ثم قرّبته منها ببطء،
حتى غطت به وجهها،
وتنشقت بعمق...

كانت هناك رائحة خافتة...
ليست عطرًا معينًا،
بل شيء أعمق... يشبه الحضن الذي لم تعرفه يومًا،
يشبه دفء يدٍ كانت تمسح على شعرها وهي نائمة...
رائحة أمها.

انسابت دموعها في صمت،
واختلطت أنفاسها بالحنين المتجذّر.

وضعت الثوب بلطف جانبًا،
ثم التقطت **السكين** القديمة التي أعطتها الجدة،
كان نصلها نحاسيًّا داكنًا، وبه أثر دم لم يجفّ رغم مرور الزمن.

نظرت إليه بجدية، ثم مزّقت شريطًا من قماش ثوبها الداخلي،
ربطته بإحكام حول ساقها اليمنى،
وثبّتت فيه السكين بحيث تكون قريبة منها دومًا...
كأنها تحمي بها ما تبقّى من دمها، من ماضيها.

ثم أخرجت **الكتاب الجلدي**، الموشّى باسم **لورينا**،
تفحصت الغلاف مرة أخرى،
مررت أصابعها على الحروف المنقوشة برهافة.
كان ثقيلاً... لكنه بدا وكأنه قلب أمها ينبض في يدها.

دسته في حقيبتها الجلدية بعناية،
وهمست :
"سأعيد كل شيء... أعدك."

جلست جدتها بصمت على حافة السرير، تراقبها بعينين غارقتين في الذكريات.

قالت الجدة بصوت مبحوح:
"سيري، يا حفيدتي... لكن لا تنسي، الدم لا يُمحى، بل يسير معنا".

أومأت إليسيا، ثم اقتربت وانحنت لتقبّل يدها، همست:
"سأعود... لا أعلم كيف أو متى، لكن سأعود".

خرجت من الغرفة، لتجد كايلان بانتظارها عند نهاية الممر.
كان واقفًا متئك على أحد الأعمدة، قلقه واضح في نبرة صوته:

"هل أنتِ بخير؟"

نظرت إليه، عيناها لا تزالان مبللتين، لكن نبرتها كانت ثابتة:
"بخير... وأنت؟"

تبادل كلاهما نظرات قصيرة، مشحونة بما لم يُقال.
ثم تابع كايلان وهو يشيح ببصره:

"يجب أن نغادر. لا أشعر أن هذا المكان... آمن بعد الآن".

هزت رأسها موافقة، ثم نظرت إلى الجدران، إلى القباب، إلى الأحجار التي كانت شاهدة على كل ما حدث هنا.

الطريق كان طويلاً، يمر عبر الممرات القديمة، الهادئة.
كلما تقدما خطوة، كان كأن الماضي يتراجع ،
كأن ما عاشاه لم يكن سوى رؤى... أو لعنات حيّة.

عندما بلغا البوابة الخارجية،
توقفت إليسيا، نظرت خلفها،
ورأت المعبد كما لم تره من قبل...
هادئًا، جامدًا، ومخيفًا في صمته الأبدي.

قال كايلان، بنبرة حاول أن يجعلها خفيفة:
"جاهزة؟"

فأجابت، دون أن تلتفت إليه:
"لا... لكن هذا لم يمنعنا من شيء من قبل، أليس كذلك؟"

ثم سارا...
خارج المعبد، خارج الذكريات،
لكن لا أحد منهما خرج حقًا كما دخل.

لم تكن الرياح في وادي الشتاء كما تذكرتها إليسيا، ولا كانت الجبال تعكس النور كما حلمت بها ذات مساء في القصر.
بل كانت الرياح باردة كأنها تعوي، تخترق العظام وتنهش الذكريات، والجبال مكسوّة بغطاء رمادية، كأن النور هجَر المكان... إلى الأبد.

وصلت إليسيا وكايلان عند تخوم الوادي بعد مسيرٍ شاق، عيونهما تطوف على منازل نصفها مهدّم، وأبراج منهارة، وساحات خاوية لا يسمع فيها سوى نحيب الريح.

وقفت إليسيا على حافة طريقٍ حجري محطم، حدقت في الهاوية أسفلها، حيث كانت القرى تتربع كقلائد منسية، فلم تجد إلا الدمار.

"هل هذا... هو وادي الشتاء؟"

سأل كايلان، عينيه تراقبان الدخان البعيد يتصاعد من أطلال بعيدة.

أومأت إليسيا ببطء، صوتها بالكاد مسموع:

"كان كذلك"...

لم يكن هناك أثر للحياة،
الأسواق أُقفلت،
المزارع جُرفت،
والشوارع نُزعت منها أرواحها.

في لوحات الجدران المتشققة،
وفي أسماء الحوانيت التي مُسحت بفعل النيران،
كان بإمكانهم قراءة القصة دون كلمات:
الناس رحلوا.

انقسم الوادي كما انقسمت القلوب.
نصفهم تبعوا **دراكاريون**، وذهبوا نحوه, نحو الوعود الغامضة بالقوة.
والنصف الآخر هرب إلى حدود **يودايمونيا**، متمسكين بالأمل الباهت أن تُنقذهم إمبراطورية النور من السقوط.

كان وادي الشتاء مدينة تفصل بين امبرطوريتين **يودايمونيا** و **إيرينفال.**

لكن لا شيء أنقذهم جميعًا.

قال كايلان وهو يتفحص بقايا درع منسي قرب جدار متشقق:
"حتى جيش الإمبراطورية... لقد خسروا الكثير هنا. الأسوار تُظهر آثار المقاومة، لكن النتيجة كانت واضحة".

ركعت إليسيا عند بقايا تمثال مكسور لامرأة كانت تمسك بطفلٍ بين ذراعيها،
ربما كان رمزًا قديمًا للخصب أو للحماية...
لكن رأس المرأة كان محطّمًا، وذراعاها مفصولتان.

جلس كايلان على حجر وسحب نفسه من أفكاره ، كان يريد أن يخبرها بما وجده،
عن الكتاب، عن الوصية، عن الأسماء التي بدأت تعني له أكثر مما يريد أن يعترف به.

لكنها كانت تحدق في البعيد،
كأنها تبحث عن ظل مَن رحلوا...
أو تحاول أن تتخيّل، كيف كانت الحياة هنا قبل أن يبتلعها الصمت.

وادي الشتاء كان في قلب النزاع، ومَن كان فيه... إما تبخّر في نار الحرب، أو ذاب في جليد الخيانة.

بعد ساعات من التقدّم وسط الحطام، تناهى إلى مسامعهم صوت حوافر خيل ثقيلة، ثم ظهرت راياتٍ صغيرة على التلال المقابلة، تحمل ختمًا مألوفًا... **شعار الإمبراطورية الممزق.**

تسارعت خطوات إليسيا وكايلان.
أخيرًا، وجدوا أثرًا لما تبقى من جيشها.

بين خيامٍ قليلة تميل مع الرياح، ورجالٍ مرهقين من التعب والجوع، استقبلهم أحد الفرسان، يعلو صدره درعٌ مشقوق وعيناه تملؤهما المرارة.

"الأميرة؟" قالها بصوت مبحوح من الصدمة والدهشة.

أومأت إليسيا بصمت، لكنّ وجهها كان شاحبًا.
"أين الجيش؟ ماذا حدث هنا؟ وأين الإمبراطور؟"

نظر الفارس إلى كايلان بارتباك، ثم ردّ بعد لحظة تردد:
"لقد... لقد خانوا الوعد، سيدتي".

اقتربت منه، قبضت على ذراعه بقوة:
"من؟ من الذي خان؟"

خفض الفارس رأسه، وصوته يرتجف غضبًا وندمًا:
"دراكاريون. طلب لقاءً مع الإمبراطور فلادور... على أن يحضرا وحدهما. عشرون فارسًا لكل منهما. وعدٌ بالشرف، بالهدنة، بفتح باب للحوار".

ثم توقف، وكأن الكلمات تؤلمه، قبل أن يواصل:

"لكنها كانت خدعة. الأمبراطور ذهب... لم يرجع. سقط في الفخ. والآن هو أسير... لدى دراكاريون".

شهقت إليسيا، ويداها ترتجفان.

"أسير؟! هل أنت متأكد؟"!

أومأ الفارس بيأس:

"نعم. لقد انتظرنا لساعات طويلة، ثم هاجمونا... بعد أن أخذوه. انسحبنا بصعوبة. خسرنا نصف الرجال المتبقين".

قال كايلان بصوت منخفض، وكأنه يحاول فهم أبعاد الخيانة:

"الهدنة كانت مجرد غطاء".

أجابه الفارس:

"لم يبقَ لنا خيار. الوادي تحت رحمتهم، والقلوب بدأت ترتجف خوفًا. الجيش مكسور... والأمل معلق، سموّ الأميرة انسحابنا أفضل خيار".

نظرت إليسيا إلى الأرض، فستان أمها لا يزال ينبض برائحة الذكريات، وسكينها مربوط في ساقها، يذكرها بما هو قادم.

الآن... لم يعد هناك مجال للتراجع.

عمّ الصمت بعد أن نطق الفارس بكلماته الأخيرة.
وقف الجنود المتبقون، أحدهم بجرحٍ على جبهته، آخر يربط يده بقطعة قماش دامية.
الوجوه شاحبة، والقلوب تترنح بين الخوف والخذلان.

لكن إليسيا... لم تسمح لنفسها بالانهيار.

"اجلبوا لي خريطة الوادي، حالاً".

قالتها بصوتٍ حازم جعل رؤوس الجنود تنتصب تلقائيًا.

أحضروها بسرعة، وبسطها أحد القادة على صخرة قريبة.

انحنت إليسيا فوقها، ثم أشارت إلى ثلاث نقاط:

"نقيم نقطة مراقبة هنا... على الجرف الغربي.
نُعيد توزيع المؤن والبقاء في نطاق القلعة المنهارة إلى حين تنظيم صفوفنا.
أما الجرحى... فأنقلوهم إلى الجزء الشمالي من الوادي، حيث المعبد المهجور، سنحوّله إلى نقطة علاج".

رفع أحد الضباط حاجبه بدهشة:
"المعبد؟ لكنه خالٍ ومهجور"...

نظرت إليه إليسيا بثبات:
"سأهتم بأمره، فقط نفذوا".

ثم نظرت إلى فارسٍ آخر:

"اجمع كل من يستطيع حمل سيف، حتى لو كان شيخًا أو فتى. أريد أن يُدرّبوا على الحراسة، وعلى الإشارات الليليّة.
من لا يصلح للقتال، يصلح للحراسة أو نقل الرسائل.
الجيش لا يُبنى فقط بالسيوف... بل بالثقة".

همس بعض الجنود لبعضهم، كانت كلماتها تتسلل إلى قلوبهم، كأنها تمسح الخوف عنهم.

تقدّم قائد آخر، وقال بانحناءة خفيفة:

"سننفذ أوامركِ يا أميرة... لكننا بحاجة إلى قائد يُلهب القلوب، لا فقط يُعطي الأوامر".

تقدّمت إليسيا، اعتلت صخرة صغيرة تطل على البقية، ثم رفعت صوتها، فاجتمع الجنود، وأنصتوا:

"أنا إليسيا أميرة امبراطورية يودايمونية ، ابنة أوريان ، وحفيدة فلادور
لن أترك هذه الأرض تُداس، ولن أقبل بأن يُسجن جدي على يد خائن.
سننفض عنّا رماد الهزيمة، سنبني من الحطام حامية،
ومن أنين الجرحى عزيمة،
ومن كل قطرة دم... نُشعل نداء العودة.
من أراد أن يستسلم... فليلزم صمته.
ومن أراد أن يقف... فليحمل سلاحه الآن".

رفع أحد الجنود سيفه عاليًا:

"معكِ حتى الرمق الأخير، يا أميرة"!

ارتفعت أصوات التأييد، واستعاد المعسكر روحه الأولى.

وبين تلك الجموع... كان كايلان يراقبها بصمت.
رأى فيها شيئًا آخر. شيئًا... مختلفًا.
القوة.

وبينما كانت صيحات التأييد تتعالى من حولها، رفعت إليسيا يدها تُسكت الحشود مجددًا. كان في عينيها تصميم جديد، كأنها ترى الخريطة تتحرك أمامها، والجيش ينبض بالحياة.

"الأوامر لم تنتهِ بعد"!

قالتها بصوت جهوري، ثم استدارت نحو أحد القادة المسؤولين عن المستودعات:

"أريد جردًا فوريًا لكل الأحصنة المتبقية... من المعبد، ومن البيوت المهدّمة، ومن أطراف الوادي. حتى تلك التي فرت بعيدًا، أرسلوا فرقًا لتتبعها واسترجاعها".

صمتت لحظة، ثم تابعت بنبرة أوضح:

"الجيش الذي لا يمتطي... لا يلاحق ولا يهرب.

الأحصنة ستكون نقطتنا الرابحة،

وستنقذنا في الهجوم القادم أو الانسحاب إن لزم الأمر".

هزّ القائد رأسه بثبات، وانطلق ينفذ الأمر.

ثم التفتت إلى حدّاد عجوز، كان جالسًا قرب العربة المهشّمة، يربط قطعة معدن بيده المضرجة:

"أيها الشيخ، هل يدك ما زالت تعرف طرق الحديد؟"

ابتسم العجوز رغم الألم، وعيناه تلمعان فخرًا:

"يداي لم تنسَ، يا أميرة. فقط أحتاج نارًا ومطرقة".

فأشارت إليسيا إلى جمع من الجنود الواقفين:
"أنتم، اجمعوا كل ما تجدونه من الحديد المتناثر في الأنقاض... سيوف مكسورة، دروع محطمة، قطع عربات قديمة... كل شيء.
وأريد أن يُنقل إلى هذه الساحة هنا، سنحوّلها إلى ورشة عمل".

ثم صاحت:
"كل من أتقن الحدادة أو النجارة أو حتى صهر المعادن... يتقدم الآن"!

تقدّم عشرة جنود, سبعة جنود في ربيع شبابهم وثلاثة في مرحلة الرشد ، أعينهم تشع بالدهشة والولاء.

قالت إليسيا بصوت واضح، والجميع يصغي:

"نحن لا نملك الوقت لننتظر دعمًا من العاصمة...
سنعيد صنع سيوفنا هنا، وسنصلح دروعنا هنا،
وسنصنع أسنانًا من حديدٍ لكل فمٍ جائع للحرية"!

انتشر الجنود.
بدأ البعض في تجميع الحديد المتناثر،
والبعض الآخر في تجهيز الأحصنة، تنظيفها وتضميد جراحها.
كان للمعسكر روح جديدة... لا تخاف، بل تستعد.

وفي طرف الساحة، وقفت إليسيا تراقب...
كأنها ترى جيشًا يُبنى من العدم.
كأن رماد الإمبراطورية بدأ يُنبت نبتة نارٍ جديدة.

لم يكن صخب المعسكر بعيدًا...
صليل الحديد، صهيل الأحصنة، وهتافات الجنود المتحمّسة...
لكن إليسيا لم تكن تسمعه.
لقد انسلّت بهدوء من بين صفوفهم، دون أن يشعر بها أحد، مشدودة كأن شيئًا في داخلها يُطالب بالهروب...
ليس من الحرب، بل من نفسها.

سارت حتى ابتعدت عنهم، إلى أطراف الوادي حيث نبتت شجرة وحيدة، ضخمة الجذع، رمت بظلها على صخرة نصف غارقة في الطين اليابس.

جلست هناك، وأسندت ظهرها إلى الجذع، وسمحت لأنفاسها أن تثقل.

كانت تشعر بثقل لا يرى، لا يُرفع بالسيوف ولا بالخطابات.
ثقلٌ يتخلل عظامها...
أصوات والدها، دموع الأطفال، تحذيراته عن كايلان، السر في عيني جدتها، والسكين المربوطة بساقها.

هل تُصدق أباها؟
هل تثق بكايلان؟
هل هي حقًا القائدة التي يظنونها؟

مدّت يدها ببطء إلى حقيبتها الجلدية، وأخرجت الكتاب الذي كانت أمها قد سلّمته للجدة منذ سنين.

مررت أصابعها على الغلاف الذي تغيّر لونه، لكن ما يزال يحمل لمسة أنثى لم تعرفها إلا في الحكايات.

فتحته برفق، وبدأت الصفحات تتقلب كأنها تتنفس.

داخل إحدى الصفحات، كانت هناك كتابة قديمة بحبرٍ خفيف، شعرت أنها تُخاطبها مباشرة:

"إلى من تأتي بعدي...
إذا كان قلبي قد توقف،
فاعلمي أن حبي لكِ لم يفعل".

ارتعشت أنفاسها، وأغمضت عينيها.
الصوت بداخلها لم يكن صوت قائدة، بل صوت طفلة... تبحث عن أمها وسط دخان الحروب والوعود المنهارة.

ضغطت الكتاب إلى صدرها، وهمست بصوت بالكاد سُمع:

"ماما... ماذا كنتِ ستفعلين لو كنتِ مكاني؟"

قلبت الأوراق الى الصفحة الاولى ببطء,
حتى توقّف بصرها على سطورٍ كتبت بخط يد أنثوي مائل، مرتبك قليلًا، كأن من كتبته كانت تحاول أن تُرتّب فوضى قلبها بالكلمات.

بدأت تقرأ في صمت:

"لم يكن القصر حلمي... بل مهربي".
"كانت أمي خادمة هناك منذ أن كنتُ صغيرة. كانت تقول لي: ليس لنا مكان إلا بين الجدران التي لا تخصّنا"
"كنا نعيش في كوخ صغير، مائل، لا يقي من البرد ولا الخوف. بعد موت أبي، جفّ كل شيء... الأرض، الحطب، وحتى نظرات الجيران".
"فقرنا كان يصرخ في وجوهنا، والناس كانوا يغضّون أبصارهم وكأننا عار يمر في الطريق".

توقفت إليسيا لحظة، ثم واصلت القراءة بعينين تهتزّان:

"في يوم خريفي، مدت أمي يدها إلى يدي الصغيرة، وقالت: (ستأتين معي إلى القصر). لم أكن أفهم يومها... لم أكن أدرك أن تلك الخطوة ستسلبني اسمي، وتمنحني صفة: "الخادمة الجديدة."

كنت أرتجف، لا من البرد، بل من نظرات الحرس وهم يفتحون لنا الباب... كأنهم يزنون وجودنا بعيونهم".

"لم يُنظر إليّ كامرأة، ولا كطفلة... بل خادمة جديد في جدران القصر".

"لكن ما لم تخبرني به، هو كيف أواجه الفتيات الأخريات... كنّ في مثل سني، وربما أصغر، لكن في عيونهن نار... نار لم أفهم إن كانت غضبًا أم حقدًا، لكني كنت هدفها. سخرن من ثوبي البالي، من لهجتي الريفية، من شعري المتشابك ورائحة يدي بعد تنظيف الموقد. قالت إحداهن لي وأنا أحمل الماء: 'ألم يجدوا في الريف غيرك؟ الكلاب أنظف!' ضحكن... وابتلعت أنا دموعي".

توقفت أليسيا عن القراءة لوهلة، وأغمضت عينيها. شعرت بشيء ثقيل يهبط في صدرها, ثم تابعت :

"كنت أنام في ركن المطبخ، ورأسي فوق سلة قشّ فارغة. وكان البرد ينهشني ليلاً أكثر من الجوع. لم أكن أجرؤ على الشكوى. لم أكن أملك حتى الحق في البكاء بصوت مسموع. كنت أقول لنفسي إنني سأبقى... فقط حتى أتعلم كيف أصبح مثل أمي. لم أكن أعلم أن قلبي سيُصهر كل ليلة لأصير امرأة دون أن أشعر".

كانت الصفحة التالية مزيّنة بخط أكثر انسيابًا، وكأن أمها كتبتها في لحظة صفاء نادرة، لحظة امتزج فيها الحنين بالفخر:

"لم أكن أملك سوى دقائق قليلة في النهار، لكنني جعلتها عالمي. كل صباح، بعد أن أنهي مهامي في القاعة السفلى، كنت أتسلل إلى الرواق الخلفي المطل على غرفة الدرس. كانت نافذة طويلة، لكن زجاجها شبه مكسور من أحد الجوانب، وكان يتيح لي أن أسمع... أن أراقب"...

كان هناك رجل ذو لحية خفيفة ونظرة صارمة، يعلّم طفلين في مثل سني تقريبًا، أو ربما أكبر. كانا يجلسان بانضباط، بملامح تحمل من البراءة قدر ما تحمل من الكبرياء. لم أعرف من يكونان، ولم يكن يعنيني ذلك... كنت فقط أُصغي.

حفظت كل كلمة. كنت أُعيدها في ذهني عشرات المرات أثناء تنظيفي للممرات، وأدوّنها على قطعة قماش مهترئة كنت أخفيها تحت ردائي. تعلمت الأحرف، ثم الكلمات، ثم كيف أكتب اسمي... ثم اسم أمي.

تعلمت أن الإمبراطورية لم تولد من سيف فقط، بل من وعد... ومن دم. قال المعلم ذات مرة: 'العرش لا يُمنح لمن وُلد، بل لمن وُضِع في الميزان ولم يُرجّف.' لم أفهم تمامًا، لكن قلبي خفق حينها كأنني فهمت شيئًا خطيرًا. شيئًا يشبه التضحية... شيئًا يشبه الفقد".

ابتسمت أليسيا رغمًا عنها. شعرت بفخر غريب يزحف في صدرها، وكأن والدتها نهضت من بين الصفحات وأخذت بيدها. ومن هامش حياتها قصة تستحق أن تُروى.

"كنت أعود كل ليلة إلى مكاني في المطبخ، وأغلق عينيّ على ما سمعته. لم يكن لديّ كتب، لكن كان لديّ ذاكرة لا تخون. في كل مرة كان الرجل يقول اسم إمبراطور أو سلالة، كنت أرسمه في عقلي. في كل مرة يشرح خريطة، كنت أتخيلها على الحائط المتشقق فوقي.

ما لم أعرفه... ما لم أدركه، هو أن الطفلين كانا يحملان الدم الملكي. لم أكن أميز بين أبناء الخدم وأبناء العرش. كانوا، في عيني، مجرد تلاميذ محظوظين. أما أنا، فكنت التلميذة التي تسرق دروسها خفية من خلف الزجاج".

وضعت أليسيا يدها على قلبها، وقرأت السطر الأخير ببطء، كما لو كان صلاةً:

"لم أكن أنتمي إلى عالمهم، لكنني عرفت ما يعرفونه. وهذا كان يكفيني".

قلّبت أليسيا الصفحة التالية، وقد بدأت ملامح الغصن الذي يربط والدتها بالماضي تتضح أكثر فأكثر. كانت هناك سطور مشوبة، كأن الحبر كُتب بيد مرتعشة:

"في اليوم الذي كدت فيه أفقد كل شجاعتي، حدث ما لم أتوقعه".

كنت أراقب الدرس من مكاني المعتاد خلف النافذة الطويلة. كان اليوم عن تاريخ التتويج الأول، عن السلالات التي ضحّت بأنفسها لتحمي هذا العرش. كان صوته يملأ الغرفة، وكان عقلي يلهث خلف كل تفصيلة.

ثم... حدث ذلك. التفت أحد الولدين فجأة. عيناه اصطدمتا بعينَيّ مباشرة. لم أكن مستعدة. تجمّدت، ثم انسحبت كمن لسعته النار. لم أجرؤ على العودة حتى انقضى الدرس، تلك الليلة لم أنم".

توقفت أليسيا قليلًا، وعيناها تلمعان بشعور لم تفهمه تمامًا، مزيج من المفاجأة والرهبة، ومن شيء آخر... حنين؟

"في اليوم التالي، قلت لنفسي إنني لن أقترب. لكنني لم أصدق نفسي.
جلست في مكاني المعتاد، أكثر خفاءً من السابق، أتوارى خلف ستار من الظل. وعندما التفت الفتى مجددًا... لم يبدُ غاضبًا، ولا متفاجئًا. فقط... ابتسم".

نبض قلب أليسيا بقوة. شيء في تلك الابتسامة، كما وصفته أمها، بدا مألوفًا بطريقة غريبة، كأنها رأتها في حياة أخرى، أو على وجه شخص تعرفه... لكنها دفعت الفكرة بسرعة.

"خفضت رأسي بسرعة، ووضعت يدي على خدّيّ لأخفي احمرار وجهي. لكنني لم أهرب. لم أعد أهرب".

"تابعت الدرس، وكل مرة كنت أرفع فيها رأسي لأرقب المعلم، كنت أشعر بنظراته تسبقني. لم يكن يحدق، فقط كان يعرف أنني هناك. وعندما كنت أسترق نظرة نحوه، كنت أجده يبتسم مجددًا أو يرمقني بفضول. كنت أختبئ كل مرة، لكنني لم أتوقف عن الحضور".

"لم نتحدث. لم نلتقِ. لم أعرف اسمه، ولم يكن يعرف اسمي... لكن شيئًا غير مرئي رُسم في الهواء بيننا".

قلبت اليسيا الصفحة مجددا لتكمل :

"ذلك اليوم... بدأ كأي يوم عادي، وانتهى بشيء لم أنسه أبدًا".

"كنت أنصت من مكاني المعتاد، مختبئة خلف النافذة كما عادتي، أستمع إلى درس عن قوانين الحكم والتفويض، حين لمحت شيئًا غير مألوف... ورقة صغيرة موضوعة على حافة الجدار الخارجي، خلف النافذة المفتوحة".

"ظننتها رمية مهملة من درس سابق، لكن خطها كان واضحًا، مرتبًا، ومقصودًا. اقتربت منها بخوف، ونظرت حولي. لا أحد كان في الحديقة. مددت يدي، وسحبت الورقة بخفة. على ظهرها كتب شيء واحد فقط":

"إليكِ أيتها المتنصّتة".

"تجمدت. لم أدرِ أأرميها وأركض، أم أقرأ. لكن شيئًا ما شدّني. فتحتها ببطء... وقرأت":

"لماذا تهربين قبل أن ينتهي الدرس؟"

"وقفت هناك، لا أعرف إن كنت أبتسم أم أرتجف. لا اسم، لا توقيع... فقط سؤال، بسيط... لكنه فتح بابًا لم يُغلق بعدها أبداً".

"احتفظت بالورقة في قماش صغير داخل كم ثيابي الخادمة الخاصة بي".

كانت عيني اليسيا غارقتين في السطور الأخيرة من الورقة، عندما سمعت وقع خطوات خفيفة لكنه ثابت يقترب.

رفعت رأسها ببطء، فوجدته يقف هناك، كايلان، بوجهه الذي لم يكن يشي بالتعب رغم الغبار العالق على سترته. تنحنح بهدوء، ثم قال بصوته العميق :

"كنت أعلم أنكِ هنا".

أغلقت أليسيا الكتاب ببطء دون أن تنظر إليه مباشرة، وكأنها ما زالت نصف عالقة في عالم أمها.

قالت بهدوء:
"هل حدث شيء؟"

اقترب منها وجلس على بعد مسافة محترمة، وبدأ بصوت عملي لكنه ناعم:

"نعم، بعض المستجدات"....

سكت لحظة، ثم استأنف:

"لدينا خمسون جنديًّا مصابين بجروح خفيفة... وبعضهم عاد على قدميه. لكن عشرة آخرين جراحهم بليغة، وضعهم مستقر حاليًا، وهم في المعبد الآن تحت الرعاية".

رفعت أليسيا حاجبيها بقلق خفيف، لكنه تابع بسرعة:

"وجدنا أيضًا أكثر من مئة وخمسين حصانًا... خمسة وعشرون منهم كانوا قد فرّوا بعد المعركة. لا زالت وحدات الاستطلاع تبحث في الغابة الشرقية والممرات الجبلية عن الباقين".

ثم نظر إليها نظرة خاطفة، وكأنّه يُقيّم مدى قدرتها على تلقّي المزيد:

"أما السيوف... فصُنّاع السلاح في صدد تجهيزها. النصل الجديد، حسب وصف الحداد، سيكون أخف وزنًا وأكثر مرونة".

سكت لحظة أخرى، ثم أكمل:

"ولدينا ثلاثمئة فارس سليم، مستعدّون لأي أمر يُصدر. المعنويات... جيدة نوعًا ما، خاصة بعد عودتك".

نظرت إليه أخيرًا. كان كلامه يقطر واقعية، لكن طريقته في عرضه... كانت تحمل شيئًا أرق من الأخبار العسكرية.

قالت، بصوت ما زال متأثرًا بالكتاب:

"كل هذا... وأنا أقرأ عن فتاة اختبأت خلف نافذة لتتعلم".

رمقها بنظرة طويلة،

ثم أطرقت برأسها، ثم تمتمت:

"ليتني أملك نفس الجرأة التي امتلكتها أمي... حين قرأت الدرس رغم كل شيء".

سكت كايلان، ثم وقف وأزاح بعض الغبار عن كمه ثم التفت ليغادر، قبل أن يضيف وهو يبتعد:

"سأكون في الساحة، إن احتجتني تجديني هناك".

وبقيت أليسيا وحدها، والكتاب في حضنها، وريح خفيفة تعبث بالصفحات كأنها تُلحّ عليها لتكمل ما بدأته.

نهضت أليسيا من تحت الشجرة ببطء، وكأنها تودّع عالمًا كانت تنتمي إليه ذات يوم، لتدخل عالمًا آخر...

ضمت الكتاب إلى صدرها لحظة، ثم وضعته بعناية في الحقيبة الجلدية التي تتدلّى من كتفها، وشدّت عباءتها، واتجهت بخطى حاسمة نحو المعسكر.

كانت السماء ملبّدة بغيوم ثقيلة، والهواء يحمل نذر المطر، لكن الأرض كانت نابضة بالحركة. بعض الفرسان كانوا جالسين في دائرة، يتقاسمون الخبز والنكات بصوت خافت، بينما كان آخرون يُصلحون عتادهم بصمت.

لم تتردد.

"أنتم"، قالت بصوت مسموع وهي تقترب من الحلقة، فانتبه الجميع ووقفوا بسرعة، أحدهم وضع الخبز جانبًا، وآخر انتزع قفازيه.

تابعت بنبرة هادئة لكن حازمة:
"أحتاج إليكم لضبط الخيام. الأرض غير مستوية، والرياح قادمة من الشرق. اربطوا الزوايا جيدًا، ووزّعوا الأحمال بالتساوي. سنُقيم المعسكر كما لو أننا سنبقى فيه عامًا".

"حاضر، سيدتي." قال أحدهم فورًا، بينما انطلق الآخرون خلفه دون نقاش.

ثم التفتت إلى مجموعة أخرى كانت تجهّز العربات، وأشارت لهم:

"أنتم، ادخلوا إلى بيوت وادي الشتاء — اختاروا منازل لم تُهدم بالكامل. اجمعوا كل ما تجدونه من أغطية، فرش، ألواح خشبية. كل شيء قابل للاستعمال. المصابين سيحتاجون الأقمشة لجرحاهم، ونحن بحاجة لكل ما يضمن الدفء قبل أن ينزل المطر".

ركض الفرسان نحو المهمة الجديدة، وبعضهم بدأ ينادي بعض الجنود الصامدين لطلب المساعدة.

أما هي، فقد سارت نحو خيمة صغيرة نُصبت على عجل، وبدأت تسحب الحبال بنفسها، تعدّل وضع الأوتاد، وتضغط على الأرض بكعب قدمها لتثبّت الخيمة، يدها تتّسخ بالطين، ولم تهتم.

مرّ أحد الجنود بها، ثم توقّف مذهولًا لرؤيتها منكبة على الأرض، وسأل بتردد:

"سيدتي، دعي هذا لنا".

فأجابته دون أن تنظر إليه:

"إن كنتم سترون في الأرض بيتًا... فعليّ أن أكون أول من يغرس فيه الوتد".

وساد صمتٌ قصير، ثم انطلقت الحركة من حولها من جديد، لكن هذه المرة بنشاطٍ مضاعف، وكأن صوتها أيقظ فيهم شيئًا غافلًا.

كانت اليد التي أمسكت بالكتاب، هي نفسها التي أمسكت بالحبل.

بينما كانت أليسيا تنهي تثبيت الحبل الأخير بيدها المتسخة، التفتت إلى الجنود القادمين من اتجاه العربات وهم يحملون بعض الأفرشة القديمة والخشب.

كان الدخان يتصاعد من بعيد، لكن من دون لهبٍ منظّم أو حرارة كافية. شعرت بأن الوقت يمرّ، والبرد يزداد، فرفعت يدها وأشارت لأحد الرقباء الواقفين:

"أين وحدة التموين؟ هل بدأوا تحضير الطعام؟"

هزّ الجندي رأسه بقلق:
"لم يتلقوا أوامر بعد يا سيدتي، وكانوا بانتظار تعليمات من كايلان".

أجفلت للحظة، ثم قالت بثقة:
"لا تنتظروا أحدًا. نحن جائعون، والليل يقترب".

أشارت نحو أربعة من الجنود الواقفين قرب العربات:
"أنتم، اجمعوا ما تبقّى من الخُضر في العربة — أي بصل، جزر، بطاطس، أعشاب... كل شيء يصلح للطبخ".

ثم نظرت إلى آخرين:
"أوقدوا النار، لا واحدة بل ثلاثًا. نحتاج نيرانًا تكفي للطهي والتدفئة معًا".

وأكملت وهي تشير إلى بعض الصناديق:

"استخدموا القدور الكبيرة، واسألوا في المعبد إن كان لديهم مرقٌ طبي دافئ للجرحى".

تحرّك الجميع بسرعة، وكأنّ صوتها لا يُناقش. أحد الجنود اقترب وقال بنبرة إعجاب خفي:

"هل تعرفين الطهي، سيدتي؟"

نظرت إليه نظرة جانبية، وابتسمت بخفة وهي تشد معطفها:

"كنت أجلس بجانب من يعرف. يكفي أن أتذكّر الرائحة، لأعرف متى يجهز المرق".

ضحك الجندي باحترام، ثم أسرع ليلحق بزملائه.

لم يمضِ وقت طويل حتى بدأت رائحة البصل المشوي تتصاعد، ممزوجة بعطر الأعشاب.

نيران بدأت تخترق الهواء البارد، وصوت تقطيع الخُضر، والملاعق التي تُحرّك القدور، أضفى على المكان حياةً غابت عنه طويلاً.

أليسيا لم تجلس بعد، بل بقيت تراقب الجميع، تصحّح، تلمح التفاصيل، وتساعد بيديها عندما يحتاج الأمر.

بعد مرور ساعات_____

كانت النيران قد خفّ وهجها، لكن دفئها لا يزال يتسلل إلى العظام. جلس بعض الجنود متفرقين قربها، يضحكون بهدوء أو يتبادلون القصص، بينما كانت أليسيا تجلس إلى طرف اللهب، معطفها مشدود حول كتفيها، ويديها قرب الجمر تلتقطان الدفء ببطء.

رائحة المرق الدافئ ما زالت عالقة في الهواء، وصوت الملاعق داخل القدور تلاشى شيئًا فشيئًا مع حلول الليل.

ثم سمعت وقع خطوات مألوفة، ثابتة كعادته، لكنها هذه المرة أكثر هدوءًا. جلس كايلان على جذع خشبي إلى جوارها دون أن ينبس بكلمة في البداية. بقيت تنظر إلى اللهب، ثم قالت:

"جيد أنك أتيت... الجو لا يرحم الليلة".

ابتسم كايلان بخفة وقال:

"ولا أنتي... لا ترحمين أحدًا اليوم. رأيتك تأمرين، تبنين، وتُشرفين حتى على الحساء".

نظرت إليه بابتسامة عابرة، ثم ساد بينهما صمت دافئ، لم يقطعه سوى صوت النار وهي تأكل الخشب ببطء.

قال كايلان بعد لحظة:

"متى تتوقعين أن يهاجموا؟"

أجابت دون تردد، وكأنها كانت تنتظر السؤال:

"لن يهاجموا فورًا. إن كانوا أذكياء — ودراكاريون غالبًا ما يكونون كذلك — فهم الآن يعيدون تنظيم صفوفهم بعد انسحابهم الأخير".

ثم تابعت بنبرة أكثر جدية:

"لكننا لا نملك ترف الانتظار. لا أريد أن نُفاجَأ، بل أن نفاجئهم نحن".

نظر إليها بتركيز، وقال:

"وما الذي تقترحين؟"

رفعت نظراتها إلى السماء المعتمة، ثم قالت:

"سأرسل جواسيس... إلى داخل حدودهم، وأقرب معسكراتهم. نحتاج إلى تقارير عن حالتهم، مدى استعداداتهم، كيف يُعاملون الأسرى، وأين يُخزّنون مؤونتهم".

أطرق كايلان برأسه قليلاً، ثم قال:

"مهمة خطيرة".

أجابت وهي تحدق في النار:

"كل مهمة تحت راية الصمت خطيرة... لكننا بحاجة لعيون في الظل، كما نحن بحاجة لسيوف في العلن".

سكت، ثم سألها بنبرة أهدأ:

"هل اخترتِ من ترسلين؟"

قالت:

"ليس بعد. أحتاج إلى من لا يُلاحظ، من يعرف الأرض، ومن لا يخون".

ثم أضافت، وكأنها تُكمل أفكارها بصوت مرتفع:

"كل خطة دون معلومة دقيقة، تُولد ميتة".

رمقها كايلان بنظرة طويلة، ثم قال:

"ما الذي فعلته بكِ تلك الكتب القديمة؟"

أجابت دون أن تلتفت إليه:

"لم تعلّمني الكتب كيف أقاتل فقط... بل كيف لا أنتظر أن يأتي أحد لينقذني".

وبينما التهم اللهبُ آخر قطعة خشب في الموقد، قال كايلان بصوت خافت، أقرب للبوح:

"أتمنى فقط... ألا تُشعلك هذه النار كما أشعلت من قبلك".

نظرت إليه هذه المرة، ثم همست:

"إن احترقت... سأحترق واقفة".

وصمت الاثنان.....

بدأ الهواء يتغيّر. هبّت نسمة باردة حملت معها رائحة معدنية خفيفة... رائحة المطر.

رفعت أليسيا نظرها إلى السماء، حيث تكاثفت الغيوم وتكاثرت خطوط البرق البعيدة بين طيّاتها، ثم تسرّبت أول قطرة، خفيفة، فوق جبهتها.

قال كايلان وهو ينهض واقفًا:
"ها هي قادمة".

وقبل أن يكمل، تتابعت القطرات بسرعة، كما لو أن السماء قد أُمرِت أن تفتح أبوابها. ارتفعت الهمهمات من أطراف المعسكر، الجنود الذين كانوا جالسين قرب النيران بدأوا يجمعون أدواتهم ويلوذون بخيامهم، والرايات الجلدية التي نُصبت مؤخرًا بدأت ترفرف بحدة.

أمرت أليسيا بصوت عالٍ، وهي تمسك بطرف عباءتها:

"الجميع إلى الخيام! احموا الأغطية والمؤن من البلل! لا تتركوا أي شيء معرضًا للغرق"!

صوت المطر أصبح أكثر كثافة، يقرع الأرض مثل الطبول. بدأ الجنود يركضون في كل اتجاه، بعضهم يحمل القدور، وآخرون يغطّون أكياس المؤونة بالقماش السميك.

كايلان صرخ في بعض الجنود الواقفين قرب البوابة:

"أنتم الخمسة، خذوا مواقع الحراسة! لا أحد يقترب من المعسكر دون إشارة واضحة"!

أجابوه بصوت واحد:
"أمرك، سيدي"!

ثبت أحدهم درعه وأمسك رمحه بإحكام، بينما لفّ الآخرون أرديتهم بإحكام حول أعناقهم، ووقفوا بثبات تحت المطر.

أليسيا، قبل أن تدخل خيمتها، وقفت لحظة تنظر إليهم — وجوههم مبللة، لكن عيونهم يقظة، والسكون الثقيل الذي جلبه المطر لم يُسكن حذرهم.

قال كايلان وهو بجانبها:

"سيبقون حتى الفجر، بالتناوب. لن يدخل أحد هذه الأرض دون أن يُرى".

أجابت بهدوء:

"وإن جاء العدو في هذا المطر... فسيُفاجَأ بأننا لم ننم".

ثم دخلت خيمتها، وكان قلبها ينبض بإيقاع يشبه صوت المطر — سريعًا، منتظمًا، ومليئًا بالأسئلة.

تقدّمت إلى الزاوية حيث وضعت بعض الحطب الجاف داخل صندوق خشبي مغطى بالقماش.
ركعت، وسحبت منه ما يكفي لإشعال نار صغيرة، ثم رتّبته ببطء وصبر، كما كانت أمها تفعل عندما كانت تُدفئها في الليالي الباردة.

أشعلت النار.

الشرر الأول تراقص بخجل، ثم تصاعد اللهب وبدأ يبعث دفئه في أرجاء الخيمة. تقدّمت قليلاً وجلست أمامه، قريبة بما يكفي لتشعر بحرارته، لكن دون أن تحجب عنه الهواء. خلعت عباءتها الثقيلة، ثم حرّرت خصلات شعرها المبللة من تحت غطاء الرأس.

أرسلت شعرها يتدلّى على كتفيها، وبدأت تمسحه بلطف بطرف قماش نظيف، عيناها تراقبان اللهب وكأنها تقرأ فيه شيئًا لا تراه العيون.

في صمت، مدت يدها إلى الحقيبة الجلدية التي لم تُفارقها منذ أن غادرت الدير، حتى في أثناء العمل بين الجنود، لم تتركها. كانت تشبه درعًا خفيفًا من الذكريات... أو من الأسرار.

سحبت منها الكتاب — كتاب أمّها، ذلك الدفتر البالي ذو الأطراف المتآكلة، لكنه مليء بما لم تستطع الكلمات وحدها أن تصفه.

قلبت الصفحات حتى عادت إلى حيث توقفت، مكان الورقة التي كتبت فيها والدتها : **" لِمَ تهربين قبل أن ينتهي الدرس؟"**

وببطء، بدأت الكلمات تستعيد نبضها، وراحت أليسيا تغوص من جديد في صفحات ماضٍ لم تكن تعلم أنه سيشكّل مستقبلها.

"هربتُ مجددًا قبل أن ينتهي الدرس. لم يكن الأمر ضعفًا، بل ضرورة. كانت لدي مهام كثيرة كخادمة، ولا يمكنني أن أتأخر دون أن يُلاحظ غيابي أحد. كانت النظرات كالسكاكين، والهمسات لا ترحم.

أهرب إلى عبءٍ ليس لي، إلى دلو ماء ثقيل، أو أرضية باردة عليّ أن أمسحها، أو ملابس نبيلة عليّ أن أطويها بدقة... لم يكن لأحد أن يرى أنني لست مجرد خادمة.

أحيانًا كنت أسترق لحظات في زاوية مظلمة، أُعيد فيها قراءة الورقة التي كتبها لي. لم أكن أفهم لماذا كتبها، لكنه جعلني أشعر... أنني موجودة.

لم أخبر أحدًا قط. لا عن الدروس، ولا عن الورقة، ولا عن الصبي الذي صار يلتفت في كل مرة وكأنه ينتظرني".

"في اليوم التالي، عدتُ إلى النافذة نفسها. لم أستطع مقاومة الرغبة، رغم أن قلبي كان ينبض بسرعة غريبة. وعندما نظرتُ، وجدت الرسالة هناك، موضوعة بدقة على الجرد كما كانت بالأمس. لكن ما صدمني... لم يكن الورق. بل عينيه" .

"كان الشاب ينظر إليّ مباشرة، دون خجل أو محاولة للتظاهر. لم يُزح نظره عن النافذة، كأنه كان يعرف أنني سأعود. وكأنه كان ينتظرني لأقرأ" .

"لم ألمس الورقة. تجاهلتها وكأنها لم تكن. اختلست نظرات خاطفة إلى المعلم وهو يتحدث، محاولًا أن أبدو وكأنني فقط أستمع للدرس. كل مرة كنت أرفع فيها رأسي، أجده ما يزال ينظر إليّ. لكنه لم يبدُ مستفزًا أو متغطرسًا... بل ساكنًا، كأن حضوري جزء من روتينه" .

"لم أُعِره اهتمامًا. لا لأني لا أريده، بل لأني لم أكن أسمح لنفسي بأن أريده. استمعت إلى المعلم بانتباه. كان حديثه هذه المرة عن الحرب. عن الاستراتيجيات المتوقعة في حالة الهجوم، عن نقاط الضعف في تشكيلات العدو، ثم صوته تغيّر قليلًا حين تحدث عن آلة غريبة" .

"قال إنها ظهرت في الجيل الماضي، استُعملت ضد إمبراطورية يودايمونيا. آلة لم تُعرَف ماهيتها تمامًا، لكن من نجا من الجنود تحدث عنها بخوف. وصفوا زئيرها، والدمار الذي خلفته، ثم اختفت. دُمّر الجيش الذي استخدمها، وضاعت الآلة... لكن هناك من رسمها، من ذاكرة أولئك الجنود" .

"رأيت المعلم وهو يبدأ في رسم تلك الآلة على اللوح الخشبي... يداه تتحركان ببطء، كأنهما تستحضران شبحًا من ماضٍ موحش. لم أرَ مثل هذا الشكل من قبل. لم يكن يشبه سيفًا، ولا حصانًا، ولا برجًا حربيًا. كان شيئًا آخر. شيئًا... مخيفًا" .

قلبت إليسيا الصفحة، وما إن فعلت حتى شهقت بخفوت.

كانت هناك رسمة.

مرسومة بخط يد دقيق، بريشة ربما قديمة، لكن التفاصيل كانت واضحة بشكل يثير الدهشة. لم تكن آلة تقليدية. كان لا يشبه لشيئ —نصف قوس من الحديد السميك، ترتكز عليه أذرع طويلة ومسننة، تُحركها عتلات، وتدفع الحجارة الثقيلة أو نيرانًا حارقة عبر آلية داخلية معقدة. بعض أجزاءها كانت مغطاة بملاحظات كتبت بخط صغير:

"يجب تثبيت هذا الذراع بعد كل ضربة".
"لا تعمل بكفاءة تحت المطر".
"قوة الدفع تعتمد على الزنبرك الحلزوني هنا".

حدقت إليسيا بالرسم مطولًا، ثم نهضت فجأة واتجهت إلى حقيبتها. أخرجت منها دفترًا صغيرًا فارغًا وبعض الأدوات البسيطة. جلست من جديد قرب النار، والشرر يتراقص حولها في سكون الليل.

بدأت ترسم.

نسخة أولى. نسخة ثانية. ثم بدأت تضيف تعديلات. كتبت فوقها:

"إذا استطعنا تقليد هذا التصميم... ستكون لنا الأفضلية".

رفعت عينيها نحو النار وهمست:

" —إنهم لا يعرفون ما نخفيه. لن ننتظر حتى يهاجمونا ، سنستعد كما لم نتأهب من قبل"...

ثم عادت لدفترها، وهي تخطط لاستخدام الموارد القليلة المتوفرة في المعسكر. خشب قوي، حداد ماهر، ونوابض تُصنَع من أجزاء عربات مكسورة. سيكون صعبًا، لكنها تعلمت من أمها شيئًا واحدًا مهمًا:

الفهم هو بداية القوة.

أقلام مقلوبة، دفاتر مفتوحة على صفحات نصف مرسومة، والمذكرة التي كتبت فيها خطوات تصنيع الآلة كانت موضوعة قرب قدمها.

راحت عيناها تُقاومان، لكن الجفنين أثقل من أن يبقيا مرفوعين.

في لحظة غفلة، **مال جسدها إلى الجانب،** وارتطم كتفها بلطف بالوسادة القماشية الصغيرة الموضوعة على الحائط الخشبي للخيمة.

غطّت النار بوميضها الأخير وجهها المنهك، ووسط تلك الفوضى الصغيرة من **أفكار ومخطوطات وأحلام حرب،** غفت إليسيا.

نامت دون أن تطفئ النار،
نامت وأمها في دفتي كتاب،
وأمامها حرب تنتظر،
وورقة تقول : *" إذا صنعناها... سنفوز"* .

استيقظت إليسيا على صوت ضرب السيوف ووقع الأقدام فوق الأرض الرطبة. تسلّل ضوء النهار الباهت عبر شقوق خيمتها، وكانت النار قد انطفأت منذ ساعات، تاركة وراءها رمادًا دافئًا.

تنهّدت وهي تجلس، متحسسة ألمًا خفيفًا في عنقها من النوم غير المريح. نظرت حولها، فرأت الأوراق لا تزال متناثرة، لكنها لاحظت شيئًا جديدًا :**غطاء خفيف غطّى كتفيها، وفوق الطاولة وُضع طبق فيه خبز دافئ وقطعة من الجبن وبعض التمر.**

كان هناك ورقة صغيرة بجانب الطبق كُتب عليها بخط كايلان:

"تناولي شيئًا قبل أن تفكري بالقتال. نحن في الخارج".

ابتسمت رغم التعب، وأكلت بهدوء، ثم جمعت أوراقها وأخرجت من حقيبتها الورقة التي رسمت عليها التصميم النهائي للآلة.

خرجت من خيمتها.

الشمس كانت خافتة، والهواء لا يزال يحمل رائحة المطر الذي بلّل الأرض ليلاً. في ساحة صغيرة عند حافة المعسكر، كان الفرسان يتدربون، والسيوف تصطدم بالدروع بخشونة منظمة. وكايلان يقف يتفقدهم، يتحدث مع بعض القادة ويشير بالتعليمات.

حين رآها، ترك ما بيده وتوجه نحوها.

قال بلطف، مبتسمًا:
"صباح النصر يا جنرالتي".

ضحكت بخفة، ثم رفعت الورقة أمامه وقالت:

"صباح النصر، وهذه هي ما سيمنحنا التفوق".

فتح الورقة بفضول، وتأمل التصميم.

أضافت:
"أمس رسمت النموذج النهائي للآلة التي تحدث عنها معلم الأمراء في كتاب أمي... مدفع، لكنه يحتاج إلى موارد دقيقة، وسيكون علينا أن نصنعه بسرّية".

نظر كايلان إلى الرسم، ثم إليها، وعيناه تتوقدان بالحذر والحماس:

"إذا كنا سنصنع هذا... فسنحتاج إلى حرفيين موثوقين، وجواسيس يحضرون لنا معلومات عن تطورات عدوّنا... وعن قدراته في صدّ مثل هذا النوع من الآلات".

هزّت إليسيا رأسها، وقالت بثقة:
"أنا مستعدة... لنصنع الفرق".

في خيمة القيادة بعد التدريب

اجتمع عدد من الجنود المميزين داخل الخيمة المركزية. جلست إليسيا عند رأس الطاولة، وكايلان واقف بجانبها، عاقدًا ذراعيه.

قالت بصوت هادئ لكنه حازم:
"استدعيتكم لأن كل واحد منكم أثبت ولاءه وكفاءته. ما سأقوله الآن لا يجب أن يخرج خارج هذه الخيمة".

تقدّم أحدهم قليلًا وقال:
"نحن رهن إشارتك، مولاتي".

أخرجت إليسيا خريطة قديمة، فرشتها أمامهم، وحددت مواقع ثلاث مستوطنات قريبة من حدود أراضي دراكاريون.

أشارت إلى أول نقطة وقالت:
"هنا، معسكر صغير تابع لهم، نحتاج إلى معرفة عدد الجنود، تسليحهم، وكل ما يتحرّك في الليل".

ثم انتقلت إلى النقطة الثانية:
"وهنا، يُشاع أنهم يبنون تحصينات، أريد أن نعرف هل هي لحماية أم للهجوم".

ثم ضغطت بأصبعها على النقطة الأخيرة، قرب نهر متعرج:
"وهذه الأهم... نحتاج لتأكيد ما إن كان هناك تحرّك مباشر نحو وادي الشتاء".

توقفت، ثم نظرت في أعينهم:
"لن تحملوا شاراتنا. لن تعرفوا بعضكم. كل واحد منكم سيذهب في اتجاه مختلف... وستعودون خلال خمسة أيام. من يتأخر يومًا دون سبب، نعتبره مفقودًا".

صمت للحظات، ثم أردفت:
"من الآن فصاعدًا، أنتم ليسوا جنودًا... أنتم **جواسيس وادي الشتاء**".

تبادل الرجال نظرات حادة، ثم انحنوا احترامًا، وكلٌّ منهم تسلّم حقيبة صغيرة تحتوي على خريطة مصغّرة، قميص مدني، وقطعة نقود خاصة ترمز إلى عودتهم الآمنة.

وقبل أن يغادروا، قالت إليسيا بنبرة هادئة ولكن صارمة:

"لا نحتاج بطولات... نحتاج الحقيقة".

خرج الجواسيس في صمت، واحدًا تلو الآخر، بينما ظل كايلان واقفًا بجانبها يراقبهم يختفون في الظلال.

قال بهدوء:
"سنعرف قريبًا إن كانت العاصفة تقترب... أم أننا نقف فوق رمادها بالفعل".

قال بصوت خافت:
"أليست معقدة بعض الشيء؟"

نظرت إليه وابتسمت ابتسامة سريعة:
"هي كذلك... لكنها ممكنة. كل التفاصيل التي ذكرها المعلم في درس الأمس كانت دقيقة. استنتجت

أبعاد العجلات الدافعة، ونظام القذف المتتالي. هذه ليست آلة قتل فقط، بل أداة لتغيير قواعد المواجهة".

تأمل كايلان الرسمة، ثم أشار إلى إحدى الزوايا:
"هذا الجزء... أليس ضعيفًا؟ إذا أصيب هنا، قد تتعطل الآلية بأكملها".

أومأت:
"فكرت في ذلك. لذلك سأغلفه بطبقة مزدوجة من الخشب والفولاذ الرقيق. ليس قويًا بما يكفي لإبطاء الحركة، لكنه يمنحها صلابة كافية".

تنهد كايلان وهو يمرر أصابعه على الخريطة المجاورة:
"وما هدفها الأساسي؟ كسر الأسوار؟ تدمير صفوف المشاة؟"

أجابت بنبرة حازمة:
"ترويعهم. جعلهم يظنون أننا نملك قوة لا تُقهر. نضرب بها أولًا، في الظلام، حين لا يتوقعون شيئًا. ونستهدف بها مخازنهم أو مواقع قيادتهم".

سكت للحظة، ثم قال وهو يحدّق في عينيها:
"وهل تعتقدين أنها ستنجح؟"

ابتسمت وهي تميل قليلاً للأمام:
"إن لم تنجح... فسأصنع غيرها".

ضحك بخفة وهز رأسه:
"لا أحد يمكنه مجاراتك حين تعقدين العزم".

ردت بابتسامة خافتة:
"وهذا هو سرّنا الوحيد".

فجر اليوم التالي – ساحة خلفية قرب معسكر وادي الشتاء

ارتفعت سحابة خفيفة من البخار في الهواء البارد، وأصوات مطارق تضرب على الحديد بدأت تُسمع من بعيد. في الساحة المحاذية للخيام، تجمع عشرات الرجال من الحدادين، والنجارين، والفرسان المتطوعين. بعضهم يسحب خشبًا سميكًا من بقايا بيوت القرية، وآخرون يصهرون الحديد في أفران أُعدّت على عجل.

وقفت إليسيا على منصة خشبية صغيرة، تمسك بين يديها الرسم النهائي للآلة. خطواتها كانت ثابتة، ووجهها يشع بالتصميم.

رفعت صوتها لتنادي الجميع:

"هذه الآلة لن تكون مجرد خشب وحديد... ستكون سلاحًا يفتح لنا الطريق، ويدفع العدو إلى التراجع. نحتاج إلى الدقة، السرعة، والسرية. لا مجال للأخطاء".

أومأ كايلان بجانبها، ثم صرخ:
"النجّارون! ابدؤوا بتشكيل العجلات. نريدها قوية، قادرة على تحمل الوزن والضغط. الحدادون، أنتم ستتولون الهيكل المعدني والقاذف".

اقترب أحد الرجال، لحية رمادية كثيفة وصوت أجش:
"وماذا عن نظام الدفع؟ لا نملك خيولًا كافية لسحب شيء بهذه الضخامة".

تقدمت إليسيا نحوه وأجابت بثقة:
"لن نسحبها مسافات طويلة، فقط نريدها أن تتحرك لمسافة كافية لتُصوّب وتضرب. لدينا نظام مزدوج، ستُدفع بقوة يدوية أولًا، ثم تُثبت في مكانها. إنها ليست آلة هروب".

بدأ الجميع يتحرّك بانضباط. الخشب يُقطع، تُقاس الزوايا، وتُثبّت العجلات في دواليب ضخمة. كل قطعة توضع بعناية، كأنها قطعة من قدر محتوم.

أما إليسيا، فقد خلعت معطفها الشتوي ورفعت كمّيها، وبدأت بنفسها تراقب وتوجّه، بل أحيانًا تمسك بالمطرقة أو القلم أو المقص الحديدي. لم تكن فقط قائدة... بل مهندسة حرب.

وفي المساء، بدأت ملامح أولية تظهر: قاعدة ضخمة على عجلات، ذراع أمامية ترتفع نحو السماء، ومكان مخصص لقذف الصخور أو الزيت المحترق.

قال كايلان وهو يتأملها:
"حين تكتمل... سيكون أول صوت تُطلقه، بداية نهايتهم".

نظرت إليه إليسيا، وابتسمت بشحوب:
"لكن يجب أن تكتمل أولاً".

ليلٌ بارد – قرب خيمة إليسيا

تلمع نار خافتة وسط الظلام، وخرائط مفرودة أمام إليسيا وكايلان، بينما الهواء مشبع برائحة الخشب المحترق والمطر القديم. كايلان يشير إلى موضع الآلة على الخريطة القديمة حيث بدأوا البناء قرب المعسكر.

قال بصوت مشوب بالقلق:
"لن تكتمل في الوقت المناسب إن أبقيناها هنا... وجَرُّها إلى أرض المعركة؟ مستحيل. الأرض موحلة والعجلات لن تصمد".

تحدّقت إليسيا في الورقة أمامها، ثم ببطء رفعت نظرها نحوه، وعيناها تلمعان بقرار نهائي:

"سننقل التصنيع".

"إلى أين؟" قال كايلان بسرعة، كأنّه يعرف الجواب ويخشاه.

ردّت بهدوء كمن يحكم على مصير حرب:
"إلى الساحة الكبرى... إلى المنطقة التي تفصل بيننا وبين دراكاريون".

ساد صمت ثقيل. وحدها أصوات الجنود من بعيد تملأ الفراغ.

قال كايلان أخيرًا:
"سنكون في مرمى أعينهم".

قالت:
"ولهذا علينا الإسراع. إذا رأوا مجرد هيكل قيد البناء سيظنونها فخًا... وسيحذرون بدل أن يهاجموا. هذه فرصتنا الوحيدة. إن أنهيناها أمامهم، سنُربكهم ونضرب أولًا".

وقف كايلان، قلب خنجره في كفه وقال:
"سنحتاج كلّ نجّار وحدّاد وقادر على حمل مطرقة".

ابتسمت إليسيا بخفة:
"ولن ننم الليلة".

مع الفجر – الساحة الكبرى

وسط فراغٍ شاسع بين الشجيرات العملاقة، يفصل بين تلال فيها رايات الإمبراطورية وامتداد معسكر دراكاريون، تُنصب خيام مؤقتة. الفرسان يشكلون دائرة للحماية، والحرفيون والجنود يبدؤون العمل على قدم وساق. العدو من بعيد يراقب، لا يعرف أهي خُدعة أم إعلان حرب.

أمرت إليسيا بصوت مرتفع:
"ابدؤوا بالقاعدة أولًا! نحتاج أن تقف بثبات قبل كل شيء"!

تعلّق أحد الحدادين وهو يطرق الحديد:
"لم أظن يومًا أني سأصنع آلة حرب تحت أعين العدو"!

ضحك زميله وقال:
"فقط لا تترك المطرقة تطير نحوهم"!

وفي السماء، تلبّدت الغيوم... وكأن المطر نفسه يترقّب بداية عاصفة أكبر.

بعد ساعات كاد الفجر أن يحل.

تساقط المطر خفيفًا، لا يمنع العمل لكنه يترك طبقة من البلل على الخشب والحديد. آخر قطعة توضع في مكانها، وآخر ضربة مطرقة تدوي ثم يسود صمت يشبه لحظة التقاط الأنفاس بعد ولادة طويلة.

كانت إليسيا تقف أمام الآلة، يداها متسختان بالزيت والسخام، وشعرها مبتل يلتصق بجبهتها .

"انتهينا..." همس أحد الحدادين، بالكاد يصدق.

كايلان تقدّم من جانبها، يمد يده ويلمس السطح البارد للآلة، التي تتكوّن من هيكل خشبي معزز بالحديد، برج تدوير صغير، وقاعدة قابلة للدفع أو الثبات، وأذرع تتشابك كأنها مخالب.

قال وهو ينظر إليها بإعجاب ممزوج بالخوف:
"إنها... تشبه ما رسمته أمك في ذلك الكتاب".

ردت إليسيا بصوت مبحوح من التعب:
"بل تشبه المستقبل الذي نصنعه بأنفسنا".

تقدّم بعض الجنود وانحنوا قليلًا إجلالًا، ليس فقط للآلة، بل لما ترمز له: إرادتهم، وحدتهم، وصراعهم الذي صار ملموسًا.

ثم رفع كايلان صوته:
"أوّل آلة... من جيل جديد من السلاح. وليكن اسمها **"مدمّعة الفجر"!"**

ارتفعت أصوات التصفيق، خافتة لكنها صادقة، وسط ضباب المساء.
أليسيا لم تصفق. كانت تنظر نحو الأفق، نحو أراضي دراكاريون... وتفكر في الثانية، التي ستقرر كل شيء.

وقفت إليسيا أمام الجنود المجتمعين حول "مدمّعة الفجر"، كانت ملامحها صارمة، وصوتها ثابتًا رغم التعب الذي تسلل إلى جسدها.

قالت وهي تشير إلى الآلة:

"الآن... أخفوها بين الجيرات. غطّوها بالقماش، بالخُشب، بأي شيء لا يلفت الانتباه. لا نريد أن يعرف العدو ما نملك قبل أوانه".

اقترب كايلان خطوة، لكن لم يقاطعها.

أكملت بنبرة واضحة:
"غدًا ليلاً... ستكون لنا الفرصة لتجربتها. بعيدًا عن الأنظار، في عمق التلال الجنوبية. إن أثبتت نجاحها... إن أظهرت أنها قادرة على صدهم، سنبدأ فورًا في صنع أخرى".

رمقتهم بعينين يملؤهما الإيمان:
"هذا ليس سلاحًا فقط، بل وعد... بأننا لن ننكسر".

هزّ الجنود رؤوسهم باحترام، ثم بدأوا بتنفيذ أوامرها بصمت وفعالية، يجرّون الآلة نحو الجيرات القريبة، يغطّونها بالقش والخشب، ويحرصون على تمويه كل جزء منها.

وفي تلك اللحظة، شعرت إليسيا أن الخطوة الأولى قد وُضعت، وأن ما بدأ ذات مساء أمام نار صغيرة وكتاب أم قديم... صار الآن حقيقة تهمس بالمستقبل.

انتهى الجنود من مهمة التمويه، وقد اختفى جسد الآلة تمامًا بين الجيرات الملطّخة بالطين، مغطّاة بالخُشب المشقوق وبقايا القماش الغليظ، وكأنها لم تكن أبدًا هناك.

انسحب الرجال بصمت، تتثاقل خطواتهم في الأرض الموحلة التي خلفها المطر، وقطرات الماء لا تزال تقطر من حواف الخيام المشدودة.

كان الظلام يبتلع ما تبقّى من صوت.

وعندما عادوا إلى المعسكر، لم يتبادلوا الكثير من الكلمات، فقط إيماءات تعب وصمت ثقيل.

دخل الجنود خيامهم واحدًا تلو الآخر، وأصوات الحذاء الرطب تخمد على القماش، بينما كانت النار في منتصف الساحة تُحتضر في صمت.

كايلان وقف للحظة يراقب السماء المعتمة، ثم التفت نحو خيمة إليسيا، دون أن يقول شيئًا.

أما هي، فكانت قد خلعَت عباءتها الثقيلة، نظرت إلى الخيمة بصمت، ثم تمتمت:
"غدًا... سيبدأ كل شيء".

ودون كلمة أخرى، دخلت إلى خيمتها.

ألقى كايلان نظرة أخيرة على المخيم، ثم انسحب بدوره.

وخيم الصمت على المكان...
لا يُسمع سوى همسات الرياح، وقطرات الماء تنزل ببطء من أطراف القماش إلى الأرض الموحلة...

...وغرق الجميع في نوم ثقيل، تحت وطأة يوم شاق، وأملٍ يُنتظر فجْره.

بعد مرور خمسة أيام – معسكر وادي الشتاء – عند الغروب

كانت الشمس توشك أن تلامس قمم الجبال الملبدة بالغيوم حين دوّى صوت صافرة من جهة الجنوب، تبعتها ثلاث ظلال تُسرع على ظهر خيول متعبة، مُلطخة بالغبار وآثار الرحلة الطويلة.

صرخ أحد الحراس من فوق التل القريب:
" افتحوا الممر"!

تقدّمت إليسيا بنفسها إلى حدود المعسكر، يرتدي كتفيها عباءة رمادية، وخلفها كايلان وعدد من القادة.

ترجّل الرجال الثلاثة بسرعة، كل واحد منهم بدا عليه الإرهاق، ولكن في عيونهم بريقٌ لا يمكن إنكاره... لقد عادوا ومعهم أخبار.

نظرت إليسيا إلى قائدهم وقالت بهدوء وحزم:
"تحدّث. ماذا رأيتم؟"

تنحنح القائد، ثم بدأ بصوت خافت لكنه ثابت:
"المعسكر ممتد على سفح الجبل الشمالي، محصّن جيدًا من الخلف بالصخور. عددهم يُقدّر بحوالي ألف وخمسمئة مقاتل. سلاحهم منظّم، وقد وصلت إليهم مؤن جديدة قبل يومين".

تقدم جاسوس آخر وأضاف:
"لكنهم متعبون... خاضوا اشتباكًا قبل ثلاثة أيام مع قبائل الحدود وخسروا أكثر من خمسين فارس. نيرانهم الليلية خافتة، ومعنويات بعضهم ضعيفة".

قال الثالث، وهو يخرج ورقة مشقوقة عليها رسم تخطيطي:
"وهذه خريطة تقريبية لمداخل معسكرهم، حددنا نقاط الحراسة وعدد التبديلات الليلية".

أخذ كايلان الورقة وهو يضيّق عينيه ليدقّق فيها، بينما ظلت إليسيا تنظر إلى الرجال الثلاثة للحظات، ثم قالت بنبرة عميقة:

"لقد أديتم مهمتكم بشجاعة. خذوا قسطًا من الراحة... الليلة، سنعيد ترتيب كل شيء".

وبينما انسحب الجواسيس إلى خيمهم، نظرت إليسيا إلى كايلان وقالت:
"الفرصة أمامنا... والآلة جاهزة".

ردّ كايلان وهو يطوي الخريطة:
"إذن... نُهاجم قريبًا؟"

ابتسمت إليسيا ابتسامة قصيرة ثم تمتمت:
"سنبدأ بصمت... دعنا نُريهم ما لم يتوقعوه أبدًا".

ليلة ما بعد عودة الجواسيس – داخل خيمة القيادة – معسكر وادي الشتاء

كان ضوء الفانوس يتمايل ببطء، يرسم ظلالًا على وجوه المجتمعين حول الطاولة الخشبية الطويلة. خريطة كبيرة مفروشة فوقها، وقد عَلّم عليها كايلان وأحد القادة بدبابيس حمراء وزرقاء، تمثل قواتهم وقوات العدو.

جلست إليسيا في رأس الطاولة، شعرها لا يزال مبتلًا جزئيًا من مطر الأمس، وعيناها مثبتتان على النقاط الحرجة في الخريطة.

قالت بهدوء:
"لدينا ثلاثة أهداف:
١ .كسر خط حراستهم الأمامي.
٢ .إدخال الآلة إلى نطاق رميها الفعال دون كشفها.
٣ .تجنب أي قتال مفتوح حتى نتأكد من فعالية الضربة الأولى".

أشار كايلان إلى السفح الجنوبي حيث الجبل يحد المعسكر:
"هنا طريق ضيق يستخدمونه لنقل المؤن. يمكن لفريق منا أن يُحدث فوضى هناك، ويجذب الأنظار بعيدًا عن الجانب الشرقي".

تدخل قائد الجواسيس قائلاً:
"أقترح إرسال وحدة خفيفة الحركة، تتظاهر بالهجوم ثم تتراجع... سيسحبون قواتهم لملاحقتنا".

أومأت إليسيا ثم ضغطت بإصبعها على رمز الخيمة الكبرى وسط معسكر العدو:
"سنوجه أول ضربة للقيادة. الآلة ستُستخدم هنا. الهدف ليس القتل، بل زرع الرعب... عليهم أن يعتقدوا أننا نملك أكثر من واحدة".

رفع كايلان حاجبًا وقال مبتسمًا:
"تريدين أن نخدعهم بالوهم؟"

"بالوهم أولاً، ثم بالحقيقة." أجابت إليسيا بنبرة واثقة، ثم تابعت:
"سنبني غطاء خشبي وهمي لآلتين إضافيتين. من بعيد، سيظنون أن لدينا جيش آلات كامل".

همس أحد القادة بدهشة:
"لكن... ماذا لو لم تنجح الآلة؟"

قالت إليسيا وهي تنظر نحو كايلان:
"ستنجح لقد قدمت لنا نتائج أفضل حتى الان. وإذا عملت كما خُطط لها... فغدًا، ستُكتب الصفحة الأولى من سقوط معسكر دراكاريون".

ساد الصمت في الخيمة للحظة، ثم قال كايلان:
"إذًا نبدأ التحضيرات. نحن نمتلك الوقت...".

أعطت إليسيا أوامرها الأخيرة بصوت ثابت:
"كل وحدة تعرف موقعها، كل جندي يعرف توقيته. بعد منتصف الليل بثلاث ساعات... تبدأ العاصفة".

هدأت الأصوات في الخارج، ولم يتبقَ سوى همسات الريح وهي تمر فوق أرض موحلة وعشب مُثقل بالندى. داخل خيمتها، جلست إليسيا أمام نار خافتة، تلف جسدها بغطاء سميك، وتمد يدها بين الحين والآخر نحو الدفء الخفيف.

عيناها متعبتان، لكن عقلها أبى أن يسكن. مدت يدها إلى حقيبتها الجلدية، وأخرجت منها كتاب والدتها المغلّف بطبقة قماشية قديمة. قلبت بين صفحاته حتى وجدت أوراقًا صغيرة، مائلة ومثنية من كثرة الاستخدام، تحمل خربشات مألوفة بخط دافئ، ممزوج بأثر العجلة.

همست:
"أمي"...

بدأت القراءة:

"قبل انتهاء الدرس الذي كنت أُنصت له، أخذت الورقة التي تركها الشاب لي، وانسحبت إلى أشغالي اليومية كالمعتاد. لم أجد وقتًا لقراءتها حتى آخر الليل، حين خمدت الأنفاس، وساد الصمت".

توقفت إليسيا لحظة، وكأنها تستشعر نبض والدتها من بين الحروف. ثم تابعت:

"فتحتها بهدوء... كانت حروفه بسيطة، لكنه كتب:
"أنتِ صغيرة على أن تكوني خادمة".

ثم سطر جديد:

"ما رأيك بصديق؟ _"

جمدت يد إليسيا على الورقة، واتسعت عيناها قليلاً، كأنها تتلمس رعشة أمها منذ سنوات.

ابتسمت بخفة، ثم تمتمت:
"هل شعرتِ حينها بالخوف أم بالدهشة؟"

قلبت الصفحة التالية ببطء، فتقابلها كلمات كتبتها والدتها بخط أكثر انفعالًا:

"في اليوم التالي، ذهبتُ إلى مكاني المعتاد لأتسلل وأتنصت على الدرس، كما أفعل كل مرة. كنت أنتظر أن أراه من بعيد، وأن أسمع ما يقوله المعلم...
لكن القاعة كانت فارغة.
لا معلم. لا شباب. فقط الصمت. شعرت بخيبة أمل كبيرة، كأنني خُذلت بلا تفسير".

تسارعت أنفاس إليسيا وهي تتابع، غارقة في القراءة:

"لكنني رأيت الورقة. كانت هناك، موضوعة في نفس المكان المعتاد، بعناية كعادته.
حملتها بيد مرتجفة، وفتحتها".

كانت الكلمات بسيطة... لكنها كانت كالسهم:
"انظري خلفك".

عينَا إليسيا تجمدتا مع تلك الجملة. همست:
"أمي... هل نظرتِ؟"

"تجمدتُ.
حرفيًا، لم أستطع أن أتحرك. لم أجرؤ على الاستدارة. شعرتُ بالدم يتراجع من وجهي، والهواء صار ثقيلاً...

أغمضتُ عيني، وانسحبتُ خطوة بخطوة، دون أن أفتحها، كما لو أنني سأُبقي العالم كله بعيدًا لو لم أرَه".

"ثم، سمعت قهقهة خفيفة... بجانبي.
فتحتُ عيني على الفور، وركضت. لا أعلم إلى أين.
فقط ركضت.
كنت أسمع ركضه خلفي... ضحكته... لهاثه القريب".

إليسيا ابتسمت بخفة، ويدها تتلمس الحرف بإحساس خفي:

"سقطت أخيرًا أمام بحيرة صغيرة...
سمعت أنفاسه يقترب، لكنه لم يتكلم.
جلس بجانبي بهدوء".

"ثم مد يده إلى جيبه، وأخرج ورقة وقلم.
كتب شيئًا وسلمه لي".

"*هل أنتِ بخير؟ هل أخفتك؟"*

"مدَّ لي القلم، فكتبت :

لا

ثم أضفت تحتها بخط صغير مرتبك:
لديّ عمل، سأُوبِّخ إن تأخرت.
بعدها، أعدت القلم إليه ونهضت. لم أنتظر منه جوابًا. فقط مشيت... كأنني أخاف أن تضعف خطواتي إن التفتُّ إليه".

أكملت القراءة، بعينين مليئتين بفضول الطفلة وحذر المرأة:

"في مساء ذلك اليوم، جاءت خادمة تبحث عني، وجهها متوتر ونبرتها غير معتادة.
أخبرتني أن هناك تغييرًا في ترتيبي.
لم أكن أفهم".

"قالت:

لن تعودي إلى المطبخ، ولا إلى تنظيف الأرضيات. ابتداءً من الغد، ستُنقلين إلى داخل القصر.

ستخدمين العائلة الإمبراطورية مباشرة.

عندها، صمتُّ".

تسارعت أنفاس إليسيا، وشعرت بقشعريرة تسري في ذراعيها.

"لم أفهم السبب. ولا كيف حدث هذا.
فقط عرفتُ أن شيئًا تغيّر...
وأن هذا التغيير لم يكن عاديًا".

كانت إليسيا ما تزال جالسة وسط الخيمة، الأوراق في حجرها، ودفء الذكريات يطغى على برودة الليل. كان كل شيء ساكنًا، إلى أن انفتح ستار الخيمة فجأة.

دخل كايلان، يزيح خصلة مبللة من شعره جانبًا، وصوته منخفض لكنه حازم:

"إليسيا... لقد حان الوقت. الكل بدأ في التحرك".

ارتبكت قليلاً وهي تلمّ أوراقها بعناية، تطويها كما لو كانت تخشى أن تتناثر الذكريات في الهواء, وتضع الكتاب في حقيبتها.

أعاد كايلان النظر إليها، لكن دون أن يضغط، فنهضت بهدوء وقالت:

"أريد مخبأً صغيرًا لهذا"...

رفعت محفظتها الجلدية وضمّتها إلى صدرها، كأنها كنز أثمن من كل الأسلحة.

نظر إليها بتركيز، ثم ابتسم ابتسامة قصيرة وقال:

"هيا، اتبعيني... أعرف المكان المناسب".

سارت خلفه بصمت، خطواتها تغوص قليلاً في الطين الموحل، حتى خرجا من أطراف المعسكر. كانت الغيوم لا تزال ثقيلة، والشمس بالكاد ترسل ضوءًا رماديًا باردًا.

توقف كايلان أمام شجرة كبيرة ذات جذع مائل، تعرفها إليسيا جيدًا.

قال وهو يرفع إصبعه نحو الأعلى:

"هناك".

نظرت إليه، حاجباها يرتفعان بدهشة خفيفة:

—في الأعلى؟"

"نعم، بين الأغصان. لن يخطر ببال أحد أن يبحث هناك".

ناولته المحفظة، فتناولها بحذر، ثم بدأ يتسلق الشجرة بخفة المعتاد. كانت قدماه تلامسان اللحاء بصوت خفيف، ويداه تتنقلان بثبات، حتى بلغ فرعًا غليظًا بين الأغصان العالية.

ثبت المحفظة داخل تجويف صغير بين الفرع ولحاء متشقق، ثم لفّ حولها قطعة قماش لحمايتها من البلل، ونظر نحوها من الأعلى قائلاً:

"آمنة".

أومأت إليسيا، وشعرت براحة غامضة تسري فيها، كما لو أن ذلك الجزء من والدتها... سيظل ينتظرها في مكانٍ لا تطاله العيون.
نزل كايلان بخفة، ثم وقف بجانبها.
"هيا الآن، إلى الساحة. كل شيء يبدأ الليلة".
نظرت إلى الشجرة للحظة أخيرة... ثم خطت بجانبه.

كانت الخيام منصوبة بإحكام، والجنود يتحركون كما لو أن شيئًا كبيرًا على وشك الحدوث.

إليسيا وكايلان وصلا إلى الخيمة الأكبر، التي تحولت إلى مركزٍ للقيادة المؤقتة. كانت الطاولة في الوسط مغطاة بخرائط مفصلة، علامات من الفحم تشير إلى الممرات والمواقع والكمائن.

وقف القادة حولها، بعضهم متكئ على السيوف، وآخرون يراقبون بصمت. التفت الجميع عندما دخلت إليسيا.

رفعت رأسها وقالت بصوت واضح:

"آن الأوان لتنفيذ الخطة".

أشار كايلان نحو الخريطة، وبدأ يتحدث بينما يشير بإصبعه:

"الليلة سنتحرك. مجموعة صغيرة ستتسلل عبر هذا المسار الجانبي المؤدي إلى الحافة الجنوبية لمعسكر العدو".

أضافت إليسيا وهي تشير إلى رموز محددة على الخريطة:

"سيتم نصب الآلة هنا".
وضعت إصبعها قرب الفجوة بين السهل والحدود الأولى لمعسكر العدو.

"سيكون لدينا أقل من نصف ساعة لتشغيلها. إن نجحت... نكررها من موقع آخر. وإن فشلت... ننسحب فورًا".

صمت ساد الخيمة لثوانٍ.

قال أحد القادة:
" وماذا عن الإشارة؟ كيف سنعلم أن الوقت قد حان؟"

أجابت إليسيا بحزم:
" سأكون هناك بنفسي. الإشارة ستكون نورًا أزرق من المصباح السري. عندما ترونه... يبدأ الهجوم التمويهي في الجهة الغربية".

تقدم أحد الجنود، يسأل بتحفظ:
" وإذا لم نر النور؟"

قال كايلان:
" حينها، لا تتحركوا. الانتظار أفضل من السقوط في فخ".

سادت لحظة أخرى من الصمت، ثم أومأ الجميع بالموافقة.

رفعت إليسيا نظرها نحوهم وقالت أخيرًا:

"هذه الليلة ليست لنا فقط... بل لكل ما آمنا بنا طوال هذا الطريق. نحن لسنا أقوى من العدو... لكننا أذكى".

نظر كايلان إليها، ابتسامة قصيرة تعلو وجهه.

"إلى المواقع".

وببطء، تفرقت الفرق، كل منها يحمل نصيبه من العبء والخطر، والسماء من فوقهم تكتم أنفاسها في انتظار الشرارة الأولى.

مرّت ثلاثون دقيقة بهدوء. كانت السماء ملبدة، والهواء ساكنًا كأن الأرض تحبس أنفاسها. كل فرقة قد أخذت موقعها حسب الخطة، وبعض الجنود الذين تحدثت إليهم إليسيا على انفراد، انزلقوا في الليل، يتجهون بخفة كالأشباح نحو خيام العدو، يحملون الزيت والمشاعل تحت العباءات.

وقفت إليسيا خلف صخرة مرتفعة قليلاً، تراقب الساحة من خلف منظار صغير. همست:

"الآن".

وفي اللحظة التالية... دوى زئير الآلة الأولى. صوت المدفع ارتجّ في الوادي كله، كأنه هدير وحشٍ عملاق أفاق بعد نومٍ طويل. تبعه صوت آخر، ثم آخر.

ارتجف بعض الجنود رغم صلابتهم، وحدقوا في السماء التي اشتعلت ببقع من الضوء والدخان.

لكن لم يمر وقتٌ طويل... حتى بدأت خيام العدو تشتعل من الداخل، وصرخاتٌ مفاجئة ارتفعت.

ومن عمق المعسكر خرجت جموع الخيالة، يرتدون الدروع الثقيلة، وأسلحتهم تلمع تحت ضوء النيران. انطلقوا كالسيل نحو الساحة.

صرخت إليسيا بأمر واضح:

"فرقة السيف! إلى الأمام"!

فانطلقت كتيبة النخبة من الجنود نحو الجبهة، واندفعوا كالسهم ليشكلوا الجدار الأول للمواجهة.

ثم ظهر كايلان، سيفه الواسع بيده، وجهه جامد ونظراته مركزة.

بلا كلمة، انضم إلى الخط الأمامي، وقف أمام الجنود مباشرة، رفع سيفه عاليًا، ثم هتف بقوة:

"من أجل وادي الشتاء"!

ارتفع الهتاف معه، وتبعته صفوف الجنود باندفاع واحد.

كان كايلان يقاتل كإعصار، كل ضربة منه تفتح طريقًا، وكل التفاف من سيفه يسقط خصمًا. بدا وكأن المعركة كلها تدور حوله.

وسط الفوضى المتصاعدة في الساحة، حيث تداخلت صرخات الجنود مع صليل السيوف وقرقعة الدروع.

وفجأة، وسط زحام الدماء والدخان، انفتح الفضاء أمامه. توقفت بعض المعارك، كأن الجميع شعروا بشيء ما...

خرج من بين صفوف العدو رجل طويل القامة، ممتلئ البنية، يلبس درعًا أسود ثقيلًا تتدلى منه شرائط حمراء داكنة. خوذته تحمل قرنًا مكسورًا، وسيفه الطويل يقطر دماً. كانت هيبته كافية لزرع الرهبة في أي قلب.

تقدّم بخطى بطيئة، عينيه مثبتتان على كايلان.

قال بنبرة ثقيلة:

"إذن... أنت المبارز الذي أرهق صفوفنا؟"

رفع كايلان سيفه، ولم يقل شيئًا.

ابتسم القائد ابتسامة باردة، ثم همس:

"حان وقت إسكاتك".

وانقض عليه دون مقدمة.

الضربة الأولى كانت كالصاعقة. كايلان تصدّى لها في اللحظة الأخيرة، ورجع خطوة للوراء مع وقع القوة. تبادلا سلسلة من الضربات الثقيلة، كل واحدة تُحدث صدى معدنيًا يهز الهواء.

كان القائد قويًا، يستخدم وزنه وسيفه لفرض السيطرة، بينما اعتمد كايلان على خفة الحركة والدقة.

انحرف كايلان إلى الجانب، فجأة، وانقض بسيفه على ساق خصمه، لكنه وجد الدرع يغلفها بإحكام. استدار القائد بلمح البصر، وضرب بكعب سيفه كتف كايلان، فتراجع الأخير قليلًا.

تنفس كايلان بصعوبة، ثم تمتم:

"قوي... لكنك ثقيل".

قالها بخفة، ثم غيّر أسلوبه، تخلى عن الدفاع الثقيل وبدأ يرقص حول خصمه. ضربات سريعة، مراوغات محسوبة. تعرق القائد، بدأت خطواته تتباطأ.

ثم في لحظة خاطفة، انحنى كايلان للأرض، تدحرج تحت ضربة ساحقة، واستدار خلف خصمه مباشرة، ووجه ضربة مائلة اخترقت ثغرة صغيرة بين كتفه ودرعه.

تجمد القائد، تهاوى على ركبتيه، ثم على الأرض.

نظر كايلان حوله، استقام، رفع سيفه للأعلى.

فصاح الجنود من خلفه:

" —كايلان! كايلان"!

لكن نظرته ظلت متجهة نحو المعسكر البعيد... نحو قلب الظلام الذي لم يُخترق بعد.

دوى صفير حاد في الهواء... ثم لمع شيء فضي يطير بسرعة البرق.

سيف طائش،

أطلقه أحد قادة العدو من بعيد... سيف لم يكن هدفه القتل بقدر ما كان يحمل رسالة.

انغرس النصل في جنب كايلان بقوة، حتى اهتز جسده وتراجع خطوة.

ثم...

صرخة ممزقة شقت ضجيج المعركة**"كايلان"!.**

كانت إليسيا.
لكنها لم تكن وحدها.

في نفس اللحظة، على طرف الساحة، صرخ **جندي غريب من صفوف العدو**، بدا كأنه تجمد في مكانه، وكأن الألم أصابه هو أيضًا.
أما الثالث، فكان **رجلًا يقف فوق أسوار مركز العدو**، بعيدًا عن أرض المعركة، صرخ بشراسة، قبضة يده تشد الدرع حتى كاد يحطمه.

أما كايلان... فكان قد انهار على ركبتيه.

وفي خضم الارتباك، وبينما كانت الأنظار تتشتت، اندفع أحد **قادة العدو الشرسين** وسط الساحة – رجل يكسوه رداء قرمزي ممزق، وله نظرة متوحشة – اقترب بسرعة خاطفة من كايلان، رفعه على كتفه رغم دمائه، واندفع به عائدًا نحو **أسوار مركز العدو.**

إليسيا حاولت التقدم، لكن جنديًا كان يراقب من بعيد، أحد أعضاء **القادة** الذين انضموا ، أمسك بذراعها وهمس:

"لا تندفعي... راقبي".

لكنها لم تكن تسمع. كانت **تشعر فقط.**

كان قلبها يخفق بعنف، كأن صدرها سينفجر.
كل شيء من حولها صار باهتًا.
الجنود يتحركون، الآلات تواصل إطلاق النار، لكنها لم تكن تراهم.

ثم جاءت الضربة التالية...

فرق العدو التي كانت تنتظر اللحظة المناسبة، خرجت من بين التلال والظلال، واتجهت نحو الآلات الجديدة، تلك التي خبأوها قرب الساحة.
وفي هجوم مباغت، حطموا الآلات واحدة تلو الأخرى.

الشرر تطاير، والدخان تصاعد.
انقلبت موازين القوة دفعة واحدة.

نظرت إليسيا حولها، رأت **التراجع**، **الفوضى**، **الضعف** في صفوفهم.
والأهم...
لم يعد كايلان موجودًا.

السماء كانت تغلي، والساحة امتلأت بصيحات الانسحاب، دخان الآلات المحطمة يرتفع كأشباح سوداء، وقلوب الجنود ترتجف من وقع التراجع.
كانت **إليسيا** وسط الخراب، يداها ترتعشان، سيفها يتدلّى، وعيناها تبحثان في كل زاوية عن أثرٍ لكايلان، أو عن أملٍ يُبقيها واقفة.

في تلك اللحظة، **صوت طبول** غريب خرق صوت السيوف.

ليست طبول العدو...
لكنها لا تنتمي إليهم أيضًا.

رفعت إليسيا رأسها ببطء، لترى على حافة التل المجاور، **جيشًا ثالثًا** يتقدم. راياته لا تُشبه أي من رايات الإمبراطورية أو العدو، ودرعه أسود فضيّ، تلمع عليه رموز قديمة منسية.

صرخ أحد الجنود:

" —إنه... إنه فَاروس! قائد المنفى"!

همس آخر مذهولًا:

"لكنه من أعداء الجميع... ما الذي يفعله هنا؟"!

ومع ذلك، لم تكن هناك وقتٌ للتساؤلات.

جيش فاروس بدأ يندفع، لا نحو جيش إليسيا، بل **ضد قوات العدو!**

اصطدمت الصفوف، وارتفع صراخ الجنود من جديد، لكن هذه المرة، لم تكن قوات إليسيا وحدها من تقاتل... لقد عاد ميزان الحرب ليتحرك!

أمرت إليسيا جنودها بالصمود، وهتفت بصوتٍ عالٍ:

"إلى الأمام! لا تخافوا من المجهول... نحن من نصنع المصير"!

بدأت قوى العدو تنهار واحدة تلو الأخرى، **وقواتهم تتراجع** نحو مركزهم الرئيسي، فقط لتحتمي بـ **الإمبراطور فلادور**، الذي خرج أخيرًا من عزلته، يحيط به حرسه الثقيل، وجهه مشدود بالغضب.

لكن لم يكن ذلك كافيًا.

مع ضربات جيش فاروس من جهة، وجيش إليسيا من الجهة الأخرى، **انهارت التحصينات**، وتحولت الساحة إلى طوفان من السيوف والنيران، و... القرار.

أحد قادة العدو، بعدما أدرك أن النهاية باتت قريبة، أمر رجاله بالانسحاب فورًا،

هتف أحدهم:

"احموا الإمبراطور! انقذوا فلادور بأي ثمن"!

واختفى خلف بوابة حديدية سريعة الإغلاق.

لحظة بعدها...

سكنت الساحة.

ثم ارتفعت **رايات إليسيا** على التل.

وبقيت هي واقفة وسط الرماد، تنظر إلى الأفق، لا تصدق كيف انتصروا.

همس أحد جنودها:

"لقد فزنا"...

لكن إليسيا كانت تحدّق في مكان سقوط كايلان، وفي التل حيث ظهر جذها فلادور، وفي جموع فاروس الذين بدأوا ينسحبون بصمت... تاركين أسئلتهم، وتحالفهم الغريب، **دون تفسير**.

رجع الركب إلى القاعدة العسكرية، وأقدام الجنود تجر التعب أكثر مما تجرهم. كانت الوجوه مطفأة، رغم النصر... لأن النصر الذي يُنتزع بثمن باهظ، لا يحتفل به بسهولة.

الرايات التي عادت، لم تكن ترفرف كما في البدايات، بل تلوّحت بهدوء كأنها تواسي من تحتها.

إليسيا كانت تمشي بين جنودها بخطى مثقلة، كأنها تسير على أطراف الجمر، عيناها شاردتان لا تُركزان في شيء، كأنها تُحصي كل من لم يعد.

حين اقتربت من خيمة القائد، خرج **جدّها** ليستقبلها. لم ينطق بشيء، ولم تنطق هي.

كل ما حدث هو **عناق قصير** ...صامت... متيبّس، أشبه بتذكّر من تكون، لا بحنينٍ مشتعل.

ثم **انفلتت من ذراعيه** كأنها لم ترد لهذا الاتصال أن يطيل شيئًا لم تعد تعرف كيف تشعر حياله، وانسحبت نحو خيمتها دون أن تلتفت.

أمام باب الخيمة، توقفت لوهلة، كأنها ترددت، ثم قالت بصوت خافت لأحد الجنود الواقفين:

"أحضر حقيبتي من عند الشجرة... تلك الشجرة التي جلسنا تحتها أول يوم في وادي الشتاء... ستجدها فوق، مخبأة جيدًا".

أومأ الجندي دون أسئلة، ورأى في عينيها ما يكفي من التعب والأسى ليعرف أنها بحاجة إلى **هدنة، لا كلمات**.

دخلت إليسيا الخيمة، وأسقطت سيفها جانبًا، ثم جلست على الفراش، كأن جسدها خائن لا يريد أن يحملها أكثر... مدت يدها تلامس التراب الجاف على الأرض، وتذكرت آخر مرة رأت فيها **كايلان**.

في الخارج، بدأ الجنود يأخذون مواقعهم للراحة، ينام من يستطيع النوم.

أما هي... فجلست في الظلام، تنتظر الحقيبة...

دُقّت قطعة الخشب أمام خيمتها برفق .فتحت عينيها ببطء. كانت جالسة هناك منذ ساعات، لا تدري إن كانت قد غفت أو فقط تاهت عن الوقت .دخل الجندي بهدوء، يحمل حقيبتها بين يديه.

قال بصوت خافت، كأنه يهمس للسكينة:

"وجدتها حيث قلتِ، في مكانها تمامًا".

أومأت له إليسيا دون أن تنظر، وأخذت الحقيبة برفق، كأنها تحتوي على كنز هشّ من زمنٍ لم يعد.

وما إن خرج الجندي وأغلق الستارة، حتى فتحت الحقيبة بسرعة لهفة خفية، وسحبت منها الكتاب المغطى بجلدٍ باهت ومُهترئ الأطراف.

تنفّست بعمق .كانت يدها ترتجف قليلًا وهي تفتح الصفحات التي توقفت عندها، وعيناها تقرأ بلهفة صوت أمها المنقوش بالحبر:

"مرّ أسبوع وأنا أتسلل صباحًا لأتنصّت على دروس المعلم، بما أنه لم تكن لدي مهام واضحة بعد. كان الفراغ نعمة غريبة في عالم الخدم".

"أُرسل كل يوم إلى غرفة الأمير لأنظفها، لكنها كانت دائمًا نظيفة... نظيفة لدرجة تُغضبني! كأن أحدًا يسبقني إليها، أو كأنها لا تُستخدم أصلاً. لم أفهم الغرض، لكني واصلت الذهاب".

"الشاب ما زال يراقبني... لا يخطئني أبدًا، في كل مرة أجلس قرب النافذة وأمد أذني نحو أصوات العلم، ألتفت، فأجده هناك. واقفًا. لا يخفي نفسه، لكنه لا يقترب أيضاً. مجرد عيون تراقبني، وكأنه ينتظر شيئًا"...

"حتى جاء ذلك اليوم"...،

..."كنت جالسة في غرفة الأمير التي كنت أنظفها كل مساء. كالعادة، نظيفة. بلا غبار، بلا أثر للحياة.

لكن هذه المرة، شيء مختلف. شيء جعلني أقف في مكاني دقيقة كاملة قبل أن أتنفس.

على الطاولة قرب النافذة، كعكة صغيرة... جميلة، منمقة، تفوح منها رائحة الفانيليا والعسل. وإلى جانبها، ورقة مطوية بعناية.

الفضل قتلني. ففتحتها ، وفيها كانت الكلمات مكتوبة بخط مألوف، يشبه كل الأوراق التي كنت أجدها سابقًا تحت نافذة قاعة المعلم:

"إليكِ، أيتها الآنسة".

تجمدت. أنا؟ آنسة؟ لكني لست سوى خادمة... لا أنا آنسة ولا أنا متطفلة تستحق الهدايا".

ثم صفحة أخرى، بخطّ مضطرب أكثر، وكأن الكاتبة كانت تبتسم وهي تخطه:

"في اليوم التالي، عدت... فقط لأتأكد. ولم أجد كعكة، لكن الورقة كانت هناك في نفس المكان.

لم ألمسها، فقط نظرت... وإذا بي أقرأ:

"أيتها المتنصتة، كانت الكعكة لكِ".

ضحكت، رغماً عني. ثم غضبت. ثم عدت أضحك. لم أدرِ كيف يمكن لكعكة وورقة أن تقلب عالمي رأسًا على عقب".

قلّبت إليسيا الصفحة التالية، ببطء يشبه اللمس الحنون، وكأنها تخشى أن تفتّت تلك الذكريات القديمة. تنهدت بصمت، وبدأت عيناها تتبعان السطور:

"وككل مرة، ذهبت مساءً إلى غرفة الأمير. كانت نظيفة كعادتها، حتى أني بدأت أتساءل إن كان هناك أحد آخر ينظفها قبلي، أو أن هناك من لا يريدني أن ألمس شيئًا فيها".

"لكن تلك المرة... لم تكن كسابقاتها. وأنا أدخل للغرفة ، لمحت شيئًا من زاوية عيني".

"رفعت رأسي بسرعة. كان هو. الشاب".

"جالسا على النافذة التي كنت أجد فيها الاوراق ، لا يحاول التخفي، بل ينظر إليّ بعينين ثابتتين" .

"لأول مرة أراه من هذا القرب. كان يرتدي قميصًا بسيطًا، وأكمامه مطوية، وشعره غير مرتب... كأنه كان يركض قبل أن يجلس هناك" .

"تجمدت في مكاني. لا أعرف لماذا شعرت أنه لن يتكلم. وبالفعل، لم يفعل" .

"اكتفى بأن رفع يده التي تدلت عند وصولي وكانت ممسكة كتاب" .

"وبدأ ينغمس في قراءته. حينها ادركت أنه أمير "

تابعت إليسيا القراءة، وقد تشكلت في عينيها ملامح من الدهشة، وابتسامة خفيفة لا تكاد تُرى. قلبت الصفحة برفق، فتابعتها الكلمات بنعومة، وكأن الأم تهمس بها في أذنها:

"حينها دخلت علينا خادمة أخرى، كانت تلهث من العجلة، ولّما رأت غرفة الأمير نظيفة تمامًا، رفعت حاجبيها بدهشة، ثم التفتت إليّ وقالت: «هيا، أحتاجك في الأروقة». لم أستطع الرفض، تبعتها بخطى ثقيلة، وقلبي لا يزال مشدودًا إلى ما تركت خلفي" .

"لمحت أن الأمير لم يكن مرتاحًا، كان غاضبًا، لم يقل شيئًا، لكن نظراته الحادة كانت كافية. تجاهلتها ومضيت في طريقي" .

"في اليوم التالي، تغيّبت عن درس الصباح، كنت مشغولة بتنظيف المخزن الكبير، وحتى المساء لم يكن لي من راحة. ومع ذلك، وجدت نفسي مجددًا أمام باب غرفة الأمير كمهامي اليومي تنظيف غرفته . طرقت الباب، استأذنت، ودخلت" .

"كان في مكانه المعتاد، جالسًا على حافة النافذة، يقرأ كتابًا، لكنني لاحظت على الفور... لم يكن هو نفس الكتاب" .

"الغرفة لم تكن نظيفة هذه المرة. شعرت أنها تُركت عمدًا كما هي" .

"بدأت في تنظيفها دون أن أتحدث. لم تمضِ نصف ساعة حتى أنهيت كل شيء. نظرت نحوه خلسة... وإذا به فجأة يرمي مجموعة أوراق ممزقة على الأرض، ثم عبث بملابسه المرتبة بعناية، فكّ طيّها ورماها بعشوائية".

"دخلت خادمة أخرى في تلك اللحظة، رفعت حاجبيها ثم قالت: «أكملي»، وخرجت على الفور".

"الأمير نظر إلى ما فعله، وكأنه ندم. بدأ في ترتيب الأوراق والملابس من جديد... فتقدّمت وساعدته دون كلمة".

"وعندما بدأت أعيد طي قميصه، قال لي فجأة بصوت خافت: «لا يجب أن تكوني سريعة... خذي وقتك،"

كانت إليسيا لا تزال تقرأ في هدوء، غارقة في الصفحات، وكأن الزمن قد تجمد من حولها. ضوء المصباح الخافت ينساب على وجهها، ونبضات قلبها تهدأ وتعلو مع كل سطر تقرأه من كتاب والدتها.

وفجأة، سُمع صوت خفيف عند باب الخيمة، تبعه دخول أحد الجنود بخطى مترددة. انحنى باحترام ثم قال:

"معذرة، آنستي... لكن وجب أن أبلغك بأمر من جلالة الإمبراطور فلادور".

رفعت إليسيا عينيها إليه، فأكمل بصوت جاد:

"الإمبراطور أمر بأن يستريح الجميع ليومين... وبعدها، سنبدأ التحرك نحو العاصمة".

أومأت إليسيا برأسها، ثم همست وكأنها تحدث نفسها أكثر مما تحدثه:

"يومان فقط"...

ثم أغلقت الكتاب ببطء، تنفست بعمق، ووضعت راحتها على غلافه، وكأنها تحاول حفظ ما قرأته في قلبها قبل ذاكرتها.

"شكرًا لك، يمكنك الذهاب." قالت بصوت هادئ.

انحنى الجندي مجددًا وخرج بصمت، تاركًا وراءه خيمتها التي استعادت سكونها... لكن عقل إليسيا لم يهدأ. العودة إلى الإمبراطورية تعني مواجهة أخرى، من نوع آخر.

حين غادر الجندي، بقيت إليسيا جالسة على حافة سريرها المؤقت، الكتاب لا يزال بين يديها، لكن عيناها كانتا شاردتين.

لا تدري ما الذي يُفترض أن تفعله الآن.

انتهت الحرب... نعم. ولكن ما بعد الحرب؟

السكوت.

الصمت.

الثقل الذي لا يتزحزح من على صدرها.

ببطء، وضعت الكتاب جانبًا، ثم خلعت عباءتها الملطخة ببقايا التراب والعرق والدم الجاف. لم تستطع أن تنظر إليها طويلاً، فطوتها ورمتها في زاوية الخيمة.

تقدمت نحو إناء الماء، غمست يديها، ثم غسلت وجهها. لم يكن الغسل سوى محاولة فاشلة لمسح آثار ما رأته، وما شعرت به.

نظرت حولها، لا شيء مألوف... كل شيء غريب، حتى جسدها الذي يشعرها بأنه أثقل مما اعتادت.

خرجت من الخيمة ببطء، مشت بين الخيام الأخرى، ترى الجنود الذين ضحكوا وانفجروا بالفرح بعد إعلان النصر، قد هدأوا. بعضهم نائم، بعضهم ينظف سلاحه بصمت، وبعضهم يحدّق في الفراغ تمامًا كما تفعل هي.

جلست عند جذع شجرة، تلك الشجرة التي كانت تراقب منها السماء حين وصلت لوادي الشتاء، لكنها لم ترفع بصرها للسماء هذه المرة. بل وضعت رأسها على ركبتيها، وعانقت ساقيها بصمت.

لم تبكِ. لم تبتسم. لم تتنفس بعمق حتى.

لأول مرة منذ بداية كل شيء... لم يكن عندها ما تفكر فيه.

كانت إليسيا، فقط إنسانة عادية، نجت من الحرب.

بينما كانت إليسيا مستلقية تحت الشجرة، وقد غلبها النعاس دون أن تدري...

أحاط بها ظلان.

خطواتهما لم تُسمع، كأن الأرض اعتادت على أن تمرّ خلسةً تحت أقدام أمثالهما.

همسا بين بعضهما بكلمات مشفّرة، قبل أن ينحني أحدهما ليتأكد أنها لا تحمل شيئًا خطيرًا... بينما الآخر دسّ إبرة صغيرة في رقبتها، بالكاد شعرت بوخزها الخفيف.

ارتخت يدها.

سقط الكتاب من حجرها.

وبهدوء، حملاها، وذوبا في الظلام كما جاءا.

لكن لم يكن هناك أي أثر يدلّ على أين ذهبت... أو من أخذها.

بعد ساعات...

استفاقت إليسيا في مكان غريب. سقف خشبي منخفض، جدران من طين ورطوبة، ورائحة بخور غريبة.

حاولت النهوض، لكنها وجدت يدها مقيدة بسلسلة إلى عمود في الحائط.

ثم سمعت الصوت.

صوت رجل لا يبدو قاسيًا... لكن في نبرته شيء خبيث.

"أهلاً بك في فَاروس يا أميرة. أو... ربما علينا أن نقول: يا بيضة النار التي يريدها الجميع".

في الطرف الآخر من المعسكر، كان الحارس المناوب يبدّل موقعه مع الآخر... ولم يلاحظ شيئًا غريبًا سوى خفّة الريح.

وفي الصباح، عندما لم تحضر إليسيا إلى الاجتماع المعتاد، ولم تُفتح خيمتها، أُعلنت حالة الطوارئ في المعسكر.

في خيمة القيادة، مساءٌ ثقيل.

كان الإمبراطور يقف أمام الطاولة الخشبية، يتأمل خرائط الجبهات بخطوطها المعقدة، حين دخل القائد الميداني فجأة، يلهث، ووجهه شاحب.

"سيدي"...

رفع الإمبراطور رأسه، بنظرة مرهقة.
" تكلّم".

"وصلنا خبر... الأميرة إليسيا... فُقدت، منذ فجر الأمس. لم تُر منذ خروجها من الجناح الغربي.".

تجمّد وجه الإمبراطور. لم يظهر عليه شيء في البداية، وكأن الزمن توقف داخله.
ثم ببطء، نزع القفاز الجلدي من يده، ووضعه على الطاولة.

"هل هذا مؤكد؟"
"نعم، مولاي. تم التحقق من هوية الأشياء.".

سحب الإمبراطور الكرسي الخشبي وجلس. لم يكن في عينيه دموع. فقط نظرة جامدة، كأن الحياة تنسحب منه.

رفع الإمبراطور عينيه من فوق أوراق المراسلات، بعينٍ متعبة، فيها أثر السهر والقلق.
" تكلّم".

تردد الجندي، ثم قال بصوت خافت:
" الأميرة إليسيا... خُطفت. كانت وحدها خارج الأسوار، تحت شجرة على أطراف السهل الجنوبي.
أحد الرعاة رأى رجلين يجرّانها، ولم يقدر أن يتدخل. وجدوا حقيبتها ملقاة هناك".

ساد الصمت. لم يصدر من الإمبراطور أي رد فعل في البداية.
لكن يده انزلقت عن الورقة، وسقط القلم.

وقف ببطء، كأن جسده يرفض التصديق.
نظر حوله، ثم قال بصوت منخفض وخشن:

"كم مرّ من الوقت؟"
" عدة ساعات يا مولاي. ربما ليلة كاملة".

أغمض الإمبراطور عينيه للحظة، ثم فتحها. نظر إلى الضابط الأقرب منه.

"أين الحرس الذين كُلّفوا بمرافقتها؟"
"كانت وحدها، سيدي. لم تُعلم أحدًا بخروجها".

ضرب الإمبراطور الطاولة بقبضته، فتبعثرت الأوراق. صرخ غاضبًا:

"من سمح لها بالخروج وحدها؟! كيف تترك حفيدة الإمبراطور دون حراسة؟! ما الذي كنتم تفعلونه؟"!

صمت الجميع.

ثم هدأ صوته فجأة، لكنه لم يهدأ من الداخل. اقترب من أحد مساعديه وقال:

"أرسلوا كتيبة خفيفة فورًا إلى الموقع. لا تُثيروا فوضى. تتبعوا الآثار، استجوبوا الشهود، ابحثوا عن أي أثر".

ثم نظر في الأرض، وصوته انكسر:

"إن حصل لها مكروه... لا أدري إن كنت سأبقى واقفًا".

انسحب الجميع، وبقي وحده.

انحنى برأسه. رفع يده إلى وجهه ومسحه ببطء.

بعد يوم من اختطاف اليسيا في كوخٍ بارد، تحت صمت الجبال...

جلست إليسيا على الفراش الخشن، ظهرها للجدار الحجري، تنظر بحذر إلى الباب الذي فُتح أخيرًا.

دخل رجل في أواخر الثلاثينات، ملامحه حادة لكن غير عدائية، عليه آثار تعب السفر، وندبة قديمة تعبر خده الأيسر. اقترب بهدوء، وجلس على مقعد خشبي مقابلها، يترك بينهما مسافة كافية.

نظرت إليه مباشرة، بصوت ثابت رغم التعب:

"ما هدفكم من اختطافي؟"

لم يبدُ عليه التردد. أجاب ببساطة:

" –نُفّذ أمر، ليس قرارًا شخصيًا".

"من أصدره؟"

سكت لحظة، ثم قال:

"رجل أراد حمايتك من شيء لم يُعلن بعد. قال إنك ستفهمين لاحقًا".

"ولماذا لم يأتِ هو؟"

"سيأتي. قال إنه متشوق للقائك".

نظرت إليه إليسيا بعيون ضيقة، وكأنها تحاول فك شيفرة كلامه:

"هل هو من الإمبراطورية؟"

ابتسم باقتضاب، نظرة ساخرة في عينيه:

"كان. كما كنتِ أنتِ جزءًا منها. لكن كثيرًا تغيّر".

"هل هو... ألدريك؟"

لم يرد. فقط نظر إليها طويلاً، بعينين لم تكن قاسية ولا رحيمة، ثم قال:

"اسمه ليس مهمًا الليلة. المهم أنك بأمان... على الأقل حتى يقرّر هو ما التالي".

ثم وقف، وقال وهو على عتبة الباب:

"سنسافر فجراً. ارتاحي الليلة، الأميرة".

خرج بهدوء، وأغلق الباب. لم يكن مقفلًا هذه المرة، لكن خطوات الحارس بالخارج كانت كافية لتذكيرها أنها ليست حرّة.

أغمضت إليسيا عينيها للحظة، ومرّ في ذهنها وجه ألدريك، ثم والدها... ثم أدريان.

همست في ظلمة الكوخ:

"أيّكم أرسلني إلى هذا الطريق؟"

بعد يومين من اختفاء إليسيا... في معسكر الحدود الشمالية.

كان الإمبراطور لا ينام إلا قليلًا، يراقب من بعيد، يتلقى تقارير متضاربة:
أثرٌ للخيول، وشاهد غامض، وحقيبة ممزقة... ولا شيء يقود مباشرة إلى إليسيا.

في هذه الأثناء، دخل القائد السياسي للمخابرات إلى خيمته، حاملاً لفافة مختومة بختم أحمر.

"مولاي... وصلت رسالة عاجلة من العاصمة. ليست جيدة".

فتحها فلادور بعينين متصلبتين، وبدأ يقرأ. ازدادت ضربات قلبه مع كل سطر.

"المدينة الشرقية خرجت عن السيطرة؟"

"نعم، مولاي. الحاكم المحلي اختفى، والبوابات أُغلقت. الجنود هناك لا يردّون. تقارير تقول إنّ أحد النبلاء أعلن تمرّدًا باسم الدم القديم. وهناك شائعات عن دعم من داخل مجلس الشيوخ نفسه".

ظلّ الإمبراطور واقفًا، ثابتًا، لكن حاجبيه ارتجفا. قال بصوت بطيء:

"هذا تمّ التخطيط له بعناية... حين أُبعد عن العرش".

ثم نظر إلى الخارطة أمامه، حيث يبعد عن العاصمة عدة أيام، وحفيدته مفقودة، والخصوم لديهم حرية التحرك

تمتم وكأنه يخاطب نفسه:
"إن عدت، سأتركها خلفي... وإن بقيت، قد تنهار الإمبراطورية".

رفع رأسه ونظر إلى القائد:
" أريد قائد الحملة. الآن".

دخل القائد بعد دقائق، فخاطبه فلادور بحدة:

"أنت المسؤول من الآن عن مواصلة البحث عن إليسيا. خذ كل الموارد التي تحتاجها. استعن بأي لأحد إن لزم الأمر".

ثم توجّه إلى مساعده:
" نغادر فجراً. أريد أن أصل العاصمة خلال أربعة أيام. حضّروا الموكب، وابعثوا برسالة فورية إلى مجلس الشيوخ : *الإمبراطور قادم بنفسه*".

خرج الجميع لتنفيذ أوامره، وبقي لحظةً ينظر نحو الأفق.

قال في نفسه:
" صبرًا، يا صغيرتي... لن أتوقف عن البحث. لكن إذا سقط العرش، لن أكون قادرًا على إنقاذك... ولا إنقاذ أحد".

في الكوخ البارد، حين خفّت الأصوات خارج الجدران...

جلست إليسيا على الفراش، تضع الغطاء الصوفي حول كتفيها، يداها لا تزالان مرتجفتين، لكن عقلها كان في مكان آخر.
سحبت من حقيبتها الصغيرة كتابًا قديمًا، مغطىً بالقماش المطرّز. كتاب أمها.

فتحته بلطف، وعلى الصفحة الأولى، رائحة مألوفة... تشبه حضنها.

قلبت ببطء، حتى وصلت إلى مقطع كتبت فيه أمها بخط يد ناعم:

"حينها كنت مجرد خادمة... لا أفعل شيئًا سوى التنصّت على الدروس الصباحية من خلف الأبواب. كانوا يتحدثون عن أشياء لا أفهمها".

ابتسمت إليسيا، وتابعت القراءة:

"ومساءً، أُرسَل لتنظيف غرفة الأمير. وغالبًا ما أجده جالسًا عند النافذة، يقرأ كتابًا سميكًا وكأن العالم كله داخله".

"وغالبًا أيضًا ما أجد على الطاولة كعكًا صغيرًا وحلويات، لم يكن من المفترض أن ألمسها... لكني كنت أُجبر نفسي على تذوقها، رغمًا عني طبعًا"...

وهنا ضحكت إليسيا بصوت خافت،

ثم تابعت القراءة:

"كان يحب أن يخيفني أحيانًا... مرةً خرج من خلف الستارة فجأة وهو يرتدي قناعًا خشبيًا غريبًا، فوقعت المكنسة من يدي، وركضت أصرخ:
'شبح! شبح في جناح الأمير!'
وضحك بعدها لأيام، وسمّاني: 'فارسة الأشباح".'

ضحكت إليسيا، ضحكة صافية كسرت برودة الغرفة.

"لم أكن أعرف إن كنت خادمة فقط... أم أن وجودي صار جزءًا من روتينه".

"في يوم ماطر، دخلت الغرفة وأنا مبلّلة تمامًا. لم أشتكِ، لكني كنت أرتجف. نظر إليّ من فوق كتابه، ثم رمى نحوي عباءته دون أن ينطق بكلمة. لم أعدها له أبدًا".

قلبت صفحة أخرى

"كان يحب قراءة الكتب الصعبة. وأحيانًا يتظاهر بأنه يشرح لي، لكنه كان يخترع كلمات غريبة.
قال مرة:
'الكنبوس هو نوع نادر من الطيور التي تأكل الكتب القديمة.'
صدقته، وبقيت أبحث عنه في الحديقة يومين"!

"في إحدى الليالي، نسيتُ أن أغلق النافذة، فدخلت قطة إلى الغرفة.
كانت تركض وتخربش الستائر. كدتُ أُفصل من الخدمة... لكنه قال للوصي:
'أنا من طلبت منها إدخال القطة. عندنا درس في الترويض البيئي'.
لم أفهم ما معنى 'الترويض البيئي'، لكنه أنقذني".

اليسيا : أيها المنقذ.

"في يوم ميلادي، الذي لم أُخبر به أحدًا... وجدت وردة ملفوفة داخل المكنسة. لم تكن صدفة.
عندما نظرت إليه، فقط قال:
'التنظيف لا يكتمل دون زينة'".

فهته اللحظة أمسكت اليسيا الكتاب وهي في قمة السعادة.

"مرةً، سقط من يده كتاب ضخم على الأرض فصفقت له قائلة:
'أحسنت يا سمو الأمير... هزمت الكتاب أخيرًا'!
فرفع حاجبه وقال:
'لا تُسجلي ضدي هذه الإهانة... أو سأرميك في برج التعليقات السلبية'"!

لقد أصابت جدتي عندما أخبرتني أنه أحب رؤيتك له على أنه شاب وليس أمير سيضع التاج .

"في أحد الأيام، انسكب الحبر على قميصه أثناء الكتابة، نظر إليّ وقال بنبرة رسمية جدًا:
'سيتم تعيينك فورًا وزيرة لشؤون الحبر. ابحثي عن حل قبل أن تُعلن هذه البقعة تمردًا'!
ففركت القماش بيديّ حتى صارتا زرقاوين، فقال ضاحكًا:
'والآن أصبحتِ تلتمين لعشيرتهم... احذري الانقلاب'"!

وضعت اليسيا كف يدها على فمها تخبأ الضحكة, ثم تتابع القراءة.

"كنت أتظاهر أحيانًا بعدم سماع ندائه، فقط لأراه يقترب ويقول بنبرة تمثيلية:
'لقد تجاهلتني؟ سأكتب فيك قصيدة مأساوية... ونسخة منها ستُعلّق على باب القصر'"!

كانت إليسيا لا تزال تقرأ، تبتسم مع كل سطر، وعيناها تلمعان بدمعة خفيفة لم تسقط.

"لو كان يعلم، ذاك الأمير، أنني كنت أكتب كل هذا... ربما كان سيضحك من نفسه، أو يطلب نسخة"!

ضحكت بخفوت، وهزت رأسها كأنها ترد على أمها:
" بل كان سيفتخر... بكِ".

وقبل أن تقلب الصفحة التالية، انفتح الباب بخفة، ودخل الرجل ذو الندبة — القائد ذاته الذي تحدّث معها بالأمس. ملامحه جادة، لكن غير قاسية.

قال بصوته العميق:
" أيتها الأميرة... استعددنا للمغادرة. سننطلق الآن".

أغلقت إليسيا الكتاب بلطف، لم تضع فاصلًا، وكأنها تحفظ الصفحة في ذاكرتها.
وضعت الكتاب داخل حقيبتها بعناية، كما لو كانت تخبئ كنزًا لا يقدّر بثمن.

وقفت، سوت شعرها بيديها، وسحبت معطفها الثقيل من على الحافة الخشبية.
نظرت إلى الرجل بثبات، وسألته:

" –هل... سأراه اليوم؟"

أجاب دون تردد، لكنه لم يبتسم هذه المرة:
" –نعم. ينتظرك. منذ الليلة الماضية".

" هو؟"

" أجل هو. من اختار أن تعيشي... حين كان بإمكانه أن يغض الطرف.
هو... من ظنّ أن الوقت حان لتسمعي منه بنفسك".

صمتت لحظة، ثم قالت وهي تنظر إلى الباب المفتوح خلفه:

" –إذن... لنسِر".

خرجت خلفه، وخطواتها بطيئة لكنها واثقة. كانت السماء رمادية، والريح باردة، والجبال صامتة...
لكن في صدرها، شيءٌ ما تحرّك.

ستراه أخيرًا.
ذاك الذي أنقذها... وترك الأسئلة تحترق.

في مملكةٍ يحكمها الذهبُ والدم، لم تكن الأقنعة زينةً للحفلات.. بل دروعًا ضد الحقيقة.

ذات شتاء، سقط القناع عن وجه الإمبراطور، وانكشفت الخيانة التي رُبّيت في أحضان القصور. هناك، وسط أضواء الكريستال وظلال المؤامرة، وُلدت أميرةٌ بقلب ذئبة.. لا لتُتوَّج، بل لتقاتل. حين يتجمّد الزمن عند لحظة الطعنة الأولى، تبدأ الحكاية.. ليس بسقوط مدينة، بل بسقوط ثقة.